شعر الصباحيات عند ابن زمرك الغرناطي

التشكيل والدلالة

د. خالد عمر محمد باوزير(*)

د. فتيحة محمد أمين العربي(**)

الملخص:

يتناول هذا البحث "شعر الصباحيات"، وهو فن شعري مدحي سلطاني، استمد وصفه وكينونته من الصباح زمناً، ودلالة، ومقوماً فنياً، ويعد من مبتكرات الشاعر الغرناطي ابن زمرك، مصطلحاً ولوناً شعرياً، ويعكس احتفاءه بدال الصباح، مطلعاً ومتناً وخاتمة. فالصباحية في مدلولها الشعري صباح القصيدة ومفتاحها وزمن ولادتها، وإشراق دوالها وتراكيبها وصورها، واكتمال بنائها، وبراعة أسلوبها وفنيتها، تستهل بأسلوب التحية الملوكية "أنعم صباحاً "أو دال الصباح. ويمثل الصباح فيها معادلاً موضوعيا لجمال الممدوح ونورانيته، كما يمثل أيضاً الزمن الشعري، من زمن المتعة، وزمن البشائر وزمن بثّ الحياة وتجددها، لتشكل الدلالات الثلاث: النورانية، والجمالية والزمانية، مرتكزات القصيدة الصباحية.

كلمات مفتاحية: الصباحيات، المدح، دلالات، التشكيل، ابن زمرك.

(*) أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي المشارك – جامعة حضرموت.

(**)أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي المساعد – جامعة حضرموت.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

The Poetry of Mornings According to Ibn Zamrak Al-Gharnati

Formation and Connotation

Abstract:

This research deals with the "Poetry of Mornings", which is a poetic art that deals with Sultan praising. Its description and its contents are driven from mornings in terms of time, connotation and artistic component. It is considered among the innovations of the Gharnati poet, Ibn Zamrak, terminologically and in terms of the poetic style, reflecting his hearty reception of the morning's denotation in the prologue, body text and epilogue. Morning poems in their poetic signification are the daybreak of the lyric poem, their key, time of their onset, vividness of their significations, formations and imagery, completion of their structure, ingenuity of their style and artistry, beginning with the style of the royal salutation "an'ama sabaahan" (good morning) or indication of the morning. In the morning lyric poems, mornings represent objective equivalents of the complimented one's beauty and luminosity. Also, they represent the poetic era of the pleasure times and times of glad tidings as well as the times of instilling life and renewing it, thus forming the three connotations of luminosity, aesthetics and temporal, which are the foundations of the morning poems.

Keywords: Morning Poems; Praise; Connotations; Formation; Ibn Zamrak.

مقدمة:

إن الناظر في شعر ابن زمرك[١] الغرناطي لتثيره ظاهرة فنية، تتواتر في شعره، وتسمه بميسم خاص، ألا وهي ظاهرة الصباحيات. يحتفي فيها الشاعر بالصباح أيما احتفاء، ويطالعنا كثيراً بمصطلح شعري جديد، يصف به بعض قصائد شعره المدحي وما يتصل به، من شكر وتهنئة وغيرها، نجده يتشكل تشكلاً فنياً خاصاً، لا سيما في استهلالاته، فيستهل بـ "مطلع صباحي". وهو مطلع جديد لم يسبق إليه.

لقد كانت الصباحيات من أكثر الأغراض الشعرية تواتراً في شعر ابن زمرك[٢] . ولنا في عدها غرضاً رأي آخر . بلغت أربع عشرة قصيدة ومقطعة حسب إحصاء المحقق، في حين أنا بعد الاستقراء والتأمل وجدنا قصائد الصباحيات تنيف على الثلاثين، مبثوثة بين ثنايا أغراض أخرى، كالتهاني، والوصف، والمدح والشكر، والإبلال من المرض، والنزهات، والإخوانيات، والمخمسات. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الجامع لم يدرج مسمى الصباحيات في تقديمه لقصائد صباحية لها النسق البنائي نفسه.

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، أبو عبد الله، المعروف بابن زمرك، بضم الزاي أو فتحها، مع ترجيح الضم، ولد سنة ٧٣٣هـ بربض البيازين بغرناطة، نشأ في أسرة متواضعة، كان ضئيل الجسم، بيد أنه كان حاد الذكاء، ثاقب الذهن، كلفاً بالقراءة، تتلمذ على يد أشهر علماء عصره، أبرزهم شيخه لسان الدين بن الخطيب، وأبي عبد الله بن الفخار، والقاضي الشريف أبي القاسم الحسني وأبي سعيد ابن لب، وأبي علي منصور الزواوي، وأبي البركات ابن الحاج وأخذ عن أبي عبد الله ابن مرزوق وأبي جعفر ابن الزيات عالم التصوف. ألحقه شيخه ابن الخطيب بديوان الرسائل، ثم ترقى حتى غدا وزيراً للغني بالله، وقد تجاوزت علاقة ابن زمرك بسلطانه الخدمة والوفاء الى نوع من الخلة والزلفى، وبذلك كان يفتخر مرددا في إحدى رقاعه:"خدمته [أي الغني بالله] سبعا وثلاثين سنة ثلاثا بالمغرب وباقيها بالأندلس...وكنت أؤاكله وأؤاكل ابنه مولاي أبا الحجاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض". قال عنه شيخه ابن الخطيب: "كان هشا خلوبا، عذب المفاكهة، حلو المجالسة، خفيف الروح، حاضر الجواب، كما كان جوادا بما في يده، مشاركا لإخوانه، بارا مؤثرا بما منح. " وأما شعره فمترام إلى نمط الإجادة خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزيرة المادة". تنكر لشيخه ابن الخطيب وانقلب عليه، لذلك يصفه الأخير في " كتيبته" بالخبث والمكر، ثم إنه قد سعى فعلاً في قتله، وقد جوزي من جنس عمله، فقتل ابن زمرك بمرأى من أهله ومسمع، مع بنيه. وذلك سنة ٧٩٧هـ. جمع له الأمير يوسف الثالث شعره وسماه " البقية والمدرك من شعر ابن زمرك" انظر ترجمته: الإحاطة في أخبار غرناطة:٣٠٠؛ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة:٢٨٢؛ أزهار الرياض في أخبار عياض:٧/٢؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:١٤٥/٧. مقدمة ديوان ابن زمرك الأندلسي:٧. ابن زُمرك الغرناطي، سيرته وأدبه، ٧٣٣. ٧٩٦هـ :٨٣.

(٢) ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٦١٠.

مجلة المهرة للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية
العدد الحادي عشر- جمادى الأولى ١٤٤٣هـ - ديسمبر ٢٠٢١
ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

الأمر الذي دفعنا للوقوف طويلاً أمام هذا اللون من الشعر، محاولين البحث في خصائصه التركيبية والبنائية والأسلوبية وتشكلاته الدلالية. وقد استفرغنا فيه الجهد والطاقة ما وسعنا، استقراءً، وجمعاً، وتمحيصاً، وتحليلاً واستنطاقاً، واستنباطاً؛ لكي نصل إلى تأصيل هذا اللون الشعري المبتكر، الذي اختص به الشاعر ابن زمرك، والكشف عن بناه الهيكلية والفنية، وتشكلاته الدلالية، وخصائصه الأسلوبية، فتبين لنا أن القصيدة الصباحية تستقي من الصباح بنورانيته وشعشعانيته توهجها الشعري وألقها الفني، فتغدو صباحية شعرية يخلع الشاعر عليها من تجليات الصباح ما يجعل منها تحفة فنية رائعة، ينشدها بين يدي مليكه زمن الصباح، غنية بأساليب التحية والثناء والمدح والوصف الفني.

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تبحث في موضوع جديد، لم يتطرق إليه من قبل، وإذا كان الشاعر ابن زمرك قد أنجزت عنه دراسات عدة، إلا أنها لم تشر إلى صباحياته[١]، فضلاً عن دراستها وبحثها، حسب علم الباحثين، إلا ما ورد من إشارة خاطفة في إحدى الرسائل الجامعية وهي بصدد الحديث عن أغراض شعر ابن زمرك، وذكرت منها "أغراض أشعار البلاط المعهودة من (شعر) وتهنئة **وصباحيات (وهي مدائح تنشد في الصباح)** إلى غير ذلك من غزل وملح ومداعبات وألغاز وأحجيات"[٢]، مما يجعل الخوض في هذه الظاهرة أمراً ذا أهمية وقيمة علمية وأدبية جليلة، لاسيما أنه موضوع بكر، وشائك، بما يثير من إشكالات عديدة. إضافة إلى أنها ـ الدراسة ـ تكشف عن نوع طريف مبتكر من المطالع الشعرية الأندلسية، وهو المطلع الصباحي. بما تمثله من إضافة نوعية جديدة في سجل مطالع القصيدة العربية.

ومن مرامي هذه الدراسة:

(١) انظر: ابن زُمرك الغرناطي، سيرته وأدبه.....؛ التكرار في شعر ابن زُرك، أسبابه ومظاهره:٢٧٩ ـ ٣٣٢؛ التناص الشعري في شعر ابن زُمرك الأندلسي (٧٣٣ ـ ٧٩٧هـ) دراسة تحليلية في نماذج مختارة:٤٠٣؛ شعر النقوش عند ابن زمرك الأندلسي، دراسة موضوعية فنية، :٣٣.١.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زمرك الغرناطي:٤٠. من (شعر) هكذا وردت، ولعل الصواب من شكر.

تسليط الضوء على جانب من شعر ابن زمرك لم يأخذ حظه من الدراسة، ألا وهو شعر الصباحيات.

- التأصيل لمصطلح "الصباحيات"، كونها من مبتكرات ابن زمرك، موضوعاً وقالباً ومطلعاً.
- الكشف عن ماهيتها وكينونتها، وبنائها الهيكلي والفني، وتشكلاتها الدلالية، ومدى تداخلها مع أغراض شعرية أخرى.
- إفراد المطلع الصباحي بالدراسة والتحليل لتشكلاته الدلالية وأنماطه، وعلاقته بالموضوع الشعري، وما يتسم به من براعة الاستهلال وفنيته.

إن أول إشكال يعترضنا مسألة تأصيل المصطلح" الصباحيات"، لاسيما أنا نجد مصطلحين متقاربين وردا أثناء تقديم جامع ديوان ابن زمرك لبعض قصائد شعره، ألا وهما "الصباحيات" و"الصبوحيات"، فهل هما بمعنى واحد، كما ذهب إلى ذلك محقق الديوان، أو أن بينهما فروقاً دقيقة، وأن لكل منهما حمولة دلالية خاصة؟

وأمر آخر يثيره البحث، وهو هل الصباحيات موضوع شعري، أو عنصر بنائي لهيكل القصيدة المدحية، أو قالب شعري له مكوناته وطرائقه الخاصة؟

وهل التحية الصباحية التي تستهل بها القصيدة الصباحية تعد مقدمة أو مطلعاً، لاسيما أن الاستهلال قد يضيق ليقتصر على التحية الصباحية، أو دال الصباح، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك؟ أو أن الصباحيات يلج الشاعر فيها إلى موضوعه المدحي مباشرة دون مقدمة، خاصة أن دلالات الصباح تصب في المدح، وترتبط بذات الممدوح.

ثم ما سر احتفاء الشاعر ابن زمرك بالصباح، حداً، جعل منه تيمة تهيمن على شعره، بلفظه ومرادفاته وإيحاءاته وامتداده الزمني؟ فتتعدد دلالاته لتحمل معاني جديدة.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

ومن حيث المنهج، فقد اقتضى البحث للكشف عن خبايا الصباحيات البنائية والفنية والدلالية، أن نتوسل بالمنهج الأسلوبي، إذ وظفناه بشكل معمق في المبحثين الثاني والثالث، واعتمدنا التحليل إجراءً لاستكناه وسبر أغوار النص الصباحي، وبنياته التركيبية واستنطاق دلالاته الكامنة، كاشفين عن أسلوب الشاعر في اختياراته، وعناصر إبداعه الفني والشعري، لاسيما أنه في هذه الصباحيات عدل عن المطالع المعروفة شعرياً، واختار بناءً جديداً في مطالع صباحياته، وهذا الصنيع يشكل انزياحاً أسلوبياً على مستوى مطلع بنية القصيدة.

لقد اقتضت إشكالات البحث أن نسير في تقسيمه على ثلاثة مباحث مسبوقة بمقدمة، ومنتهية بخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع وفق التصميم الآتي:

المبحث الأول: محاولة في تأصيل المصطلح "الصباحيات". لغة واصطلاحاً، وصولاً إلى اقتراح تعريف دقيق لهذا الفن الشعري.

المبحث الثاني: التشكلات الدلالية للصباحيات، وهي ثلاث:

١. الدلالة النورانية.

٢. الدلالة الجمالية.

٣. الدلالة الزمانية.

المبحث الثالث: البناء الفني للصباحيات: وركزنا الحديث أكثر عن أهم ميزة انمازت بها هذه الصباحيات، ألا وهي افتتاحياتها واستهلالاتها، لما تمثله في نظرنا من قيمة فنية جديدة مضافة تتمثل في "المطلع الصباحي ". وكذا تناولنا عنصر الاختتام الصباحي. فجاء هذا المبحث كالآتي:

١. المطلع الصباحي: ودرسنا فيه براعة الاستهلال وفنيته، وتشكيلاته الدلالية، وعلاقته بالموضوع الشعري في الصباحية، وأنماطه:

النمط الأول: الاستهلال بالتحية الصباحية.

النمط الثاني: الاستهلال بدال الصباح.

٢. الاختتام بالصباحية تحية أو دالاً.

المبحث الأول: محاولة في تأصيل المصطلح:

إن مصطلح شعر الصباحيات يأخذ مشروعيته الاصطلاحية من كون الصباحيات تستهل بتحية صباحية وهي "أنعم صباحاً "، وإن كان إطلاق المصطلح قد اتكأ على الشق الثاني، لأن للصباح حضوراً دلالياً بارزاً كما سيتضح، فالصباحيات هي جمع صباحية نسبة إلى الصباح، وعليه لابد من البحث في الأصل اللغوي لشقَّيْ التحية، أنعم وصباحاً.

١. التعريف اللغوي:

أولاً: **أنعم لغة:** جاء في اللسان: "نعِم: النَّعِيمُ والنُّعْمَى والنَّعْمَاء والنِّعْمَة، كُلُّهُ: الخَفْض والدَّعةُ والمالُ، وَهُوَ ضِدُّ البَأْساء والبُؤْسى... والنعمة بالفتح وهي المسرة والفرح والترفّه...، والنِّعمة: اليد البيضاء الصالحة، والصنيعة والمِنّة، وما أنعم به عليك"(١). "وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: أَنْعَمْتَ عَلَى فلانٍ أَيْ أَصَرْتَ إِلَيْهِ نِعْمةً. وَتَقُولُ: أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ، مِنَ النِّعْمة. وأَنْعَمَ اللهُ صَباحَك، مِنَ النُّعُومةِ. وقولهُم: عِمْ صَبَاحًا كلمةُ تحيّةٍ، كأَنه مَحْذُوفٌ مِنْ نَعِمَ يَنْعِمُ، بِالْكَسْرِ، كَمَا تَقُولُ: كُلْ مَنْ أَكلَ يأْكلُ، فَحَذَفَ مِنْهُ الأَلف والنونَ اسْتِخْفَافً (٢).

وأورد ابن النحاس قول يونس سئل أبو عمرو عن قول عنترة "وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي "فقال: قولهم هو من: يعم المطر، ويُعم البحُر: إذا كثر زبده، كأنه يدعو لها بكثرة

(١) لسان العرب: ٥٧٩/١٢ . ٥٨٠، مادة نعم.

(٢) لسان العرب: ٥٨١/١٢، مادة نعم.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

الاستسقاء والخير، وقال الأصمعي: عمْ، وانعمْ واحْدٌ، أي: كن ذا نعمة وأهل، إلا أن "عم "أكثر في كلام العرب(١).

وزاد ابن الأنباري "وقوله: عمي صباحاً، أراد انعمي، واسلمي من الآفات، ومعنى اسلمي: سلّمك الله تبارك وتعالى من الآفات"(٢).

والتحية بصيغة "أنعم صباحاً" تحية جاهلية إذ "كَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُحَيُّونَ بِأَن يَقُولَ أَحدهم لِصَاحِبِهِ أَنْعِمْ صَبَاحًا، وأَبَيْتَ اللَّعْنَ، وَيَقُولُونَ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ، فكأَنه عَلَامَةُ المسالَمَةِ وأَنه لَا حَرْب هُنَالِكَ، ثُمَّ جَاءَ اللَّه بالإِسلام فَقَصَرُوا عَلَى السَّلَامِ وأَمروا بإِفْشائِهِ" ومثله في قول امرئ القيس:

ألا انعم صباحا أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي

ومن اللغة الأخرى قول عنترة بن شداد العبسي:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي(٣)

ومما يعزز أنها تحية ملوكية ما ورد في لسان العرب من قول الْقُتَيْبِيُّ في شرحه للتحيات لله: "إِنَّمَا قِيلَ التَّحِيَّات لِلَّهِ لَا عَلَى الجَمْع لأَنه كَانَ فِي الأَرض مُلُوكٌ يُحَيَّوْنَ بتَحِيّات مُخْتَلِفَةٍ، يقال لبعضهم: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، وَلِبَعْضِهِمْ: اسْلَمْ وانْعَمْ وعِشْ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلِبَعْضِهِمْ: انْعِمْ صَباحاً، فَقِيلَ لَنَا: قُولوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ أَي الأَلفاظُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُلْكِ وَالْبَقَاءِ وَيُكَنَّى بِهَا عَنِ الْمُلْكِ فَهِيَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"(٤).

(١) لسان العرب: ٦٤١/١٢، مادة وعم. وانظر: بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي:٦٥٨. وانظر: شرح البغدادي لقصيدة لمرىء القيس " ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي":٨١٢.

(٢) بلاغة أساليب التحية: ٦٥٨.

(٣) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار:٨٥/٣

(٤) لسان العرب: ٢١٦/١٤. مادة حيا.

إن دلالات هذه التحية لمتعددة، فهي تعني الدعاء للمخاطب بكثرة الخير والإنعام والخفض والدعة والمال والأهل، والمسرة والفرح والترفّه، والنعومة، والسلامة من الآفات. "وكل المعاني المذكورة لم تخرج عن الدعاء بكثرة الخير والإنعام، ومع ذلك كله فهي تحية مخصوصة بوقت الصباح، وليست تحية عامة، يوضح ذلك اقترانها بكلمة "صباحاً"[(١)].

ثانياً: الصباح لغة: "والصبح: الفجر، أول النهار، ج: أصباح، وهو الصبيحة والصباح والإصباح والمصبح كمكرم. وأصبح: دخل فيه، وبمعنى صار. وصبّحهم: قال لهم: عمْ صباحاً، وأتاهم صباحاً"[(٢)] وجاء في المصباح: "والصبح الفجر والصباح مثله وهو أول النهار والصباح أيضا خلاف المساء قال ابن الجواليقي الصباح عند العرب من نصف الليل الآخر إلى الزوال ثم المساء إلى آخر نصف الليل الأول[(٣)].

ومن معاني الصبح الحمرة المخالطة لبياض أو لسواد، "والصُّبحة والصَّبحة والصَّبَح: سواد إلى الحمرة، وقيل: لون قريب إلى الشَّهبة، وقيل: لون قريب من الصَّهبة، والأصبح: الشديد حمرة الشعر، ومنه صبح النهار مشتق من الأصبح. قال الأزهري: ولون الصّبْح الصادق يضرب إلى الحمرة قليلاً كأنها لون الشفق الأول في أول الليل [(٤)].

ومن معاني الصباح الوضاءة والجمال، "الصباحة: الجمال، وقد صبُح بالضم يصبِح صباحةً، ورجل صبيحٌ وصُباحٌ، بالضم: جميل، والجمع صِباحٌ، الصبيح: الوضيء الوجه [(٥)].

(١) بلاغة أساليب التحية: ٦٥٩.

(٢) لسان العرب :٥٠٤/٢. مادة صبح

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: ٣٣١/١. مادة صبح وانظر: شرح البغدادي لقصيدة امرئ القيس:٨١١

(٤) لسان العرب: ٥٠٦/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٥٠٧/٢.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وعليه، فإن الصباحيات تستقي معناها اللغوي من جماع المعاني اللغوية الثلاث للجذر "صبح" وهي: الامتداد الزماني للصباح، ولون الحمرة الممتزجة بالبياض، والوضاءة والجمال، وكذا من معاني الإنعام المذكورة آنفاً.

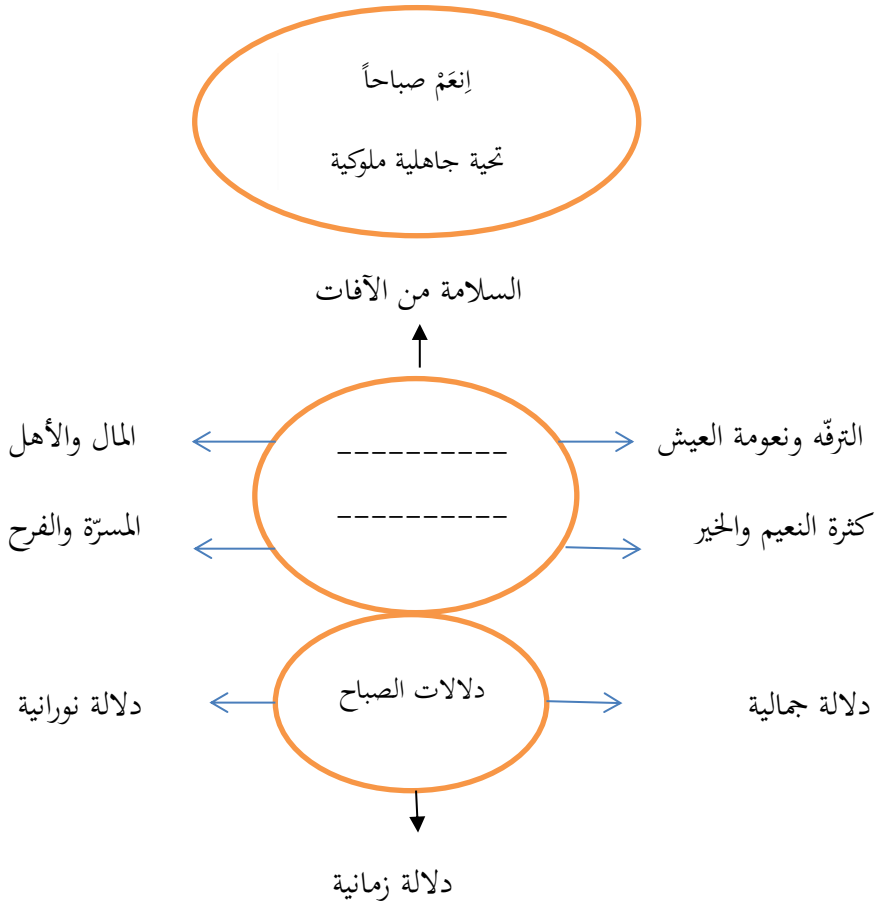

٢. **الصباحيات اصطلاحاً:**

إن أول من يطالعنا بمصطلح "الصباحيات" جامع ديوان ابن زمرك، وهو السلطان النصري يوسف الثالث، حينما يقدم بين يدي قصائد ومقطعات لابن زمرك، مستهلاً بقوله:" وكتب إليه أيضاً

من الصباحيات وفواتح التحيات."[١]، وقد يأتي بما يدل عليها كقوله: "وقال يصابحه رحمة الله عليه بالتحية في يوم أكثر من التوقيعات بالمكارم."[٢]، وقوله: "أنشده صبيحة يوم، شاكراً أيضاً عن نعم وصلته أمسه"[٣]، وقوله: "وقال يحييه مصبحاً"[٤]، وقوله: "وقال أيضاً من تحيات الصباح."[٥].

في حين أورد الجامع مصطلح "الصبوحيات"[٦] وهو يقدم لموشحة من موشحات ابن زمرك، بقوله: "ومن مخلع البسيط في الصبوحيات قوله سامحه الله تعالى ورحمه ورضي عنه"[٧].

إن لمصطلح "الصباحيات" لدى الجامع مفهوماً يكاد ينحصر في الشعر الذي ينشد بين يدي ممدوحه، يستهله بتحية صباحية، في صيغة "أنعم صباحاً" وأخواتها، يكون موضوعه مدحاً وما يتصل به من شكر أو تهنئة أو غيرها.

من مثل قوله مستئذناً الخليفة للسفر لتفقد أملاكه [٨]:

انْعَم صباحاً بثاني العيد يا ملكاً أيامُه كلُّها عيدٌ وأفراحُ
قضّيتَ بالأمسِ ما قضّيتَ من سننٍ بها تنعّمُ أجسادٌ وأرواحُ
... والعبدُ يستأذن المولى على سفرٍ بالجسم والقلبُ في مثواك يرتاحُ

وقوله يحييه في صباحية مادحاً ركابه بوادي الخرس[٩]:

(١) ديوان ابن زمرك:٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص٧٧. انظر أكثر ص٧٠، ٧١، ٧٥ ،٧٣، ٧٨،١١٢، ١٠٢،١٠٣، ١١٤، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٩٧، ٢٩٩،
(٣) المصدر نفسه: ٨٦.
(٤) المصدر نفسه: ٢٥٣.
(٥) المصدر نفسه: ٢٤٠.
(٦) جمع صبوحية، نسبة إلى الصبوح، والصبوح لغة: يحمل معنى الأكل والشرب صباحاً، جاء في لسان العرب: " والصبوح: كل ما أكل وشرب غدوة، وهو خلاف الغبوق، وحكى الأزهري عن الليث: الصبوح: الخمر؛ وأنشد:
ولقد غدوت على الصبوح معي شَرْبٌ كرامٌ من بني رُهْمِ
والصبوح من اللبن ما حلب بالغداة، واصطبح القوم: شربوا الصبوح. وصبّحه: سقاه صبوحاً فهو مصطبح. انظر: جمهرة اللغة: ٦١/١. ولسان العرب: ٥٠٧/٢
(٧) الديوان: ٥٣٨. وانظر: ٥٤١.
(٨) المصدر نفسه: ٦٤.
(٩) المصدر نفسه: ٧٠.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

ألا عِمْ صباحاً ضاءَ منك جبينُه وراقَ به الإقبال واقتبلَ البِشْرُ
فأنتَ لنا شمسٌ إذا متَعَ الضُّحى. عجبنا وفي الليلةِ الليلاءِ أنتَ لنا بدرُ
لوادي الخُرْسِ قد سالَ أنعماً فلم ندرِ وادٍ ما جرى فيه أم بحرُ؟

في حين أنه يقصد بالصبوحيات الشعر أو الموشح الخمري، الذي يصف مجلس أنس صباحي، ليجتمع فيها موضوع الخمر ووصف مجلسه مع وصف الطبيعة والغزل، ويخلص فيها إلى مدح الخليفة في آخرها، وتسميتها صبوحية هنا يتسق مع المعنى المعجمي للفظة الصبوح، وهي الخمر التي تشرب صباحاً. ويعضد ذلك قوله(١):

ريحانةُ الفجر قد أطلّتْ خضراءَ بالزُّهر تزهرْ
ورايةُ الصبح قد أظلّتْ فالشهب في مرقب الشمس تنشرْ
من غارة الصباحِ ترعدُ خوفاً وتخفقْ
وأدهم الليل في جماحِ أعنّةَ البرقِ يطلقْ
والأفق في ملتقى الرياحِ بأدمع الغيثِ يشرقْ

ويمضي في وصف الطبيعة إلى أن يقول:

والسحب بالجوهر استهلّتْ فالبرق سيفٌ مجوهرْ
صفاحه المذهبات حلّتْ في راحة الجو تشهرْ
والكأس في راحة النديمِ يجلو بها غيهب الهمومْ
أقبست النار في القديم من قبل أن تخلق الكرومْ
والنهر في ملعب النسيمِ للزهر في عطفه رقومْ

(١) الديوان: ٥٣٨. وانظر : ٥٤١.

فلبّـــة الحلـــي قـــد تحلّـــتْ والطـــلّ في الحلـــي جـــوهرْ
وبهجـــة الكـــون قـــد تجلّـــتْ والـــروض بالحســـن يبهـــرْ

أما محقق الديوان الدكتور محمد النيفر فقد جعل مصطلحي "الصباحيات" و "الصبوحيات" بمعنى واحد، فقال عن "الصباحيات: "جمع صباحية: وهي قصيدة مدحية تنشد للأمير في الصباح. ولعلها من استعمالات ابن زمرك"(١). وعن "الصبوحيات":"جمع صبوحية وهي المدحية التي تقال في الصباح(٢)".

ويبدو أن الدكتور النيفر قد أغفل في تعريفه مكونين من مكونات الصباحيات الزمركية وهما:

أ ـ تعدد الموضوعات التي تمتزج بها الصباحيات، كالشكر(٣) والتهنئة بالإبلال من المرض(٤)، والاستئذان(٥)، والوصف(٦)، والهدية(٧)، والطرديات(٨)، والعيديات(٩)، والإخوانيات(١٠)، ووصف الخمر ومجالس الأنس(١١) وغيرها. إضافة إلى المدح وإن كان هو الموضوع الأبرز.

ب ـ بناء الصباحيات على عنصر التحية الصباحية، وهو الأصل في التسمية بالصباحيات.

أما فيما يخص الصبوحيات، فقد قصرها على المدح باعتبار الغرض المتخلّص إليه، في حين أن مفتتح الصبوحيات يتمثل في وصف الخمر ومجلسها، ولهذا سميت بالصبوحيات اتساقاً مع المعنى

(١) الديوان:٦٤. وهامش: ٦١٠.
(٢) المصدر نفسه هامش: ٥٣٨.
(٣) المصدر نفسه: ٨٥، ٨٦.، ٢٤٥، ٤٥٠، ٤٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ٧٥، ٧٨،١١٤
(٥) المصدر نفسه: ٦٤
(٦) المصدر نفسه: ٧٢، ٧٣،١٠٣، ١١٢،٣٢٣.
(٧) المصدر نفسه: ١٠٢، ٧٩
(٦) المصدر نفسه: ٢٩٩.
(٩) المصدر نفسه : ٤٦٢
(١٠) المصدر نفسه: ٣٧١، ٣٧٣.
(١١) المصدر نفسه: ٢٩٧، ٢٩٩.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

اللغوي للكلمة، فحينما قدم الجامع لصبوحية ابن زمرك، عقب بقوله" سامحه الله تعالى، ورحمه، ورضي عنه"(١) وذلك لما فيها من ذكر لشرب الخمر والتهتك(٢).

ومصطلح الصبوحيات نجد أوليته عند شيخ ابن زمرك لسان الدين بن الخطيب، حينما أمره سلطانه النصري بنظم أبيات صبوحية على عادته، وهي قصيدة خمرية (٣):

خـذْها فقـد وضـح **الصـباحُ** ولاحـا ... والـروض يُهـدي عَرْفَـه النفّاحـا
مـازال يكـتم مـن حـديث نسـيمِه ... والآن أمكنـه الحـديث فباحـا
لمـا رأى جـيشَ الصـباح مشـمِّراً ... عمـت مضـاربُه رُبىً وبِطاحـا
.. والطـيرُ يـدعو **للصـبوحِ** مكـرراً ... فـتراه قـد نفـض الجنـاح وصـاحا
حُـثَّ الكـؤوسَ وهاتنيهـا قهـوةً ... تنفـي الهمـوم وتجلـب الأفراحـا
.. وامـزج بصِـرف الـراح عـذب رُضـابها ... مـا ضـرّ أن خلـف الحـرامِ مُباحـا
قامـت تقـول، وفي فتـور جفونهـا ... سِنةُ الكرى: مـولاي، **عمْـتَ صـباحا**

فهو يستهل القصيدة بذكر دال الصباح، ويكرره خمس مرات، ويعرض للتحية الصباحية في المتن على لسان قينة السلطان يوسف النصري، وتكاد تكون هذه القصيدة الوحيدة التي وردت عند ابن الخطيب مقدّم لها بمصطلح "الصبوحية"، لأنها استهلت بمقدمة صبوحية خمرية طويلة، ثم إن الشاعر ابن زمرك اقتفى أثر شيخه

بيد أنه اختط لنفسه مساراً خاصاً، حينما تلقف خيوط الفكرة من شيخه وبنى عليها لوناً شعريا جديداً مبتكراً، بمسمى صباحي، له أصوله وقواعده البنائية والفنية والأسلوبية، فلابن الخطيب سبق الفكرة، ولابن زمرك فضل ابتكار وتطوير فن شعري، اختص به ألا وهو "الصباحيات".

(١) المصدر نفسه: ٥٣٨، وانظر:ص٤١.
(٢) انظر تعليق المحقق هامش رقم " ٦ " : ٥٣٨.
(٣) ديوان ابن الخطيب: ١/ ٢٢٢،٢٢١.

ثم إن هذا التفرد الإبداعي الزمركي في فن الصباحيات، ليؤكده تواتر عدد مهم من قصائد الصباحيات في ديوانه، ما يزيد عن ثلاثين قصيدة ومقطعة، ذات خصائص بنائية وموضوعية وفنية تنهض بها فناً شعرياً قائماً بذاته، وهو من ملامح التجديد الفني والشعري لدى ابن زمرك.

إذن، فالصباحيات والصبوحيات اكتسبا مسمّييهما من استهلاليهما، إن مطلع صباحي أو مقدمة صبوحية، وليس بحسب الغرض الشعري.

ويمكن أن نمثل فرق ما بين المصطلحين الشعريين بالرسم الآتي:

الصباحيات = مطلع صباحي + مدح خالص أو ممتزج بغيره + زمن الصباح

الصبوحيات = مقدمة صبوحية خمرية + مدح + زمن الصباح

إنا من خلال تتبعنا لهذا اللون من الشعر، وجدنا علاقة بنائية وفنية ودلالية، تتشكل بين الصباحيات والصباح، سواء كانت افتتاحية بتحية، ابتداء، أو وسطاً، او خاتمة [1]، أو بذكر دال الصباح في الاستهلال أو المتن، ليشع بمدلوله النوراني والنفسي والفني على هذا الشعر.

ولا تكاد قصيدة أو مقطعة تخلو من ذكر دال الصباح في الاستهلال أو المتن، فأضحت كلمة الصباح والمعجم النوراني الدائر في فلكه من نور وشمس وبدر وشعاع وسناً، والهالة والهلال، والشهب والنجوم والضياء والغرة ..أيقونة تتكرر في كثير من موضوعاته الشعرية، خاصة شعر المديح السلطاني.

من ذلك قوله مهنئاً بخلافة السلطان يوسف الثاني[2]:

[1] ستناول تفصيل هذه المسألة في مبحث خاص بالبناء الفني للصباحية.

[2] الديوان: ٤٦٦. وانظر :٤٧١.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

طلع **الهلالُ** وأفقه متهلّلُ فمكبِّرٌ لطلوعه ومهلِّلُ
أوفى على وجه **الصباح بغرّةٍ** فغدا **الصباح بنورها** يتجمّلُ
شمسُ الخلافة قد أمدّت **نورَه** وبسعدها يرجو التمام ويكملُ
لله منه **هلال** سعد طالع **لضيائه** تعشو **البدور** الكُمّلُ
وألحْتَ يا **شمس** الهداية **كوكباً** يُعشي **سناه** كلّ من يتأمّلُ
والتاجُ **تاج البدر** في أفق العلى مازال **بالزُّهر النجوم** مكلّلُ
ولئن حوى كل الجمال فإنه **بالشهب** أبهى ما يكون وأجملُ
أطلعتَ يا **بدر** السماح **هلالَه** والملكُ أفق والخلافة منزلُ
يبدو **بهالات السروج** وإنه من **نور وجهك** في العلى يستكملُ

فغدا دال الصباح لازمة ينضح بها شعره، استفتاحاً ومتناً، وفي أكثر من موضوع شعري. من ذلك قوله مهنئاً ممدوحه بالإياب من رحلة صيد(١):

يا خير من فضح الصباحَ بغرّةٍ من بشرها أنواره تتوقّدُ
اهنأ بمقدمك السعيد فإنه للنصر والفتح المبين مجددُ

وقوله في إخوانية واصفاً رسالة وجهها إليه ابن الخطيب(٢):

طالعتُها دون الصباح صَباحاً لما جلتْ غُررَ البيان صِباحا
ولقد رأيت وما رأيت كحسنِها وجهاً أغرَّ ومبْسِماً وضّاحا
عذراء أرضعها البيان لِبانه وأطال مغْدى عندها ومراحا

وقال في المديح النبوي قصيدة استهلها بذكر صباح الشيب(٣):

(١) الديوان: ٣٠٠. ٣٠١. وانظر :٤٧٤.
(٢) المصدر نفسه: ٣٧٣. وانظر أيضاً : ٣٤٥.
(٣) المصدر نفسه: ٣٧٥.

هذا الصباحُ صباح الشيب قد وضَحا سرعان ما كان ليلاً فاستنار ضحى

للدهر لونان من نورٍ ومن غسقٍ هذا يعاقب هذا كلما برحا

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن المقصود **بالصباحيات هي فن شعري موضوعه مدح خالص أو ممتزج بغيره من الموضوعات التي تدور في فلكه؛ كالشكر والتهنئة والوصف. ينشد زمن الصباح، يستهل بمطلع صباحي، ذي تحية ملوكية غالباً، يشع بلفظ الصباح ومدلولاته النورانية والجمالية والزمانية على هذا الشعر ليغدو الصباح تيمة شعرية مدحية، ولازمة فنية، تتكرر في الصباحية.**

المبحث الثاني: دلالات الصباحيات

١. الدلالة النورانية

لقد وظف الشاعر دال الصباح، بمدلوله النوراني والإشعاعي، فأضفاه على ممدوحه النصري، فغدا مصدر النور، فالصباح يستمد إشراقه من غرته الصبوحة، وفي هذا يبدو أن وجه الخليفة كان نورانياً بهي الغرة، فوجهه يحيل على الصباح، والصباح يحيل على وجه الخليفة. من ذلك قوله في الغنى بالله في مجلس أنس [(١)]:

عِمْ صباحاً فأنت نورُ الصباحِ واسرح اللحظَ في الوجوهِ الصِباحِ

واغتنم للسرور يوماً فيوماً وصل اليُمنَ دائماً بالنجاحِ

فهنا اتكأ الشاعر على التشبيه البليغ، إذ جعل الممدوح أي المشبه عين المشبه به أي نور الصباح، فالخليفة نفسه نور الصباح قد بلغ حالة من الحلول والاتحاد بعلاقة التماهي لا تستطيع بعدها أن تفصل بينهما:

(١) الديوان: ٢٩٩.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

الخليفة النصري ⇄ نور الصباح

وهذا المعنى النوراني يلح عليه كثيراً، موظفاً في تجليته التشبيه البليغ قليلاً، والتشبيه المقلوب كثيراً؛ فيجعل الصباح مرة يشرق من وجه الخليفة أو محياه، أوغرته، أو جبينه ماحياً بنوره حلكة الدجى(١):

أمـا وصـباحٍ مـن جبـينٍ تبلّجـا وليـلٍ بهـيمٍ للغـدائر قـد سـجا
وبـدر محيـاً أخجـلَ البـدرَ حسـنُه وقـد صـدعت أنـوارُه حُلكـةَ الـدجا

ويختم هذه القصيدة بالمعنى نفسه(٢):

ويشـرق منـه يومُـه بجبينـه وقـد لاح وضّـاحَ الأسـارير أبلجـا

إن الشاعر ما انفك يجعل للخليفة نوراً يعم الوجود، يشع من وجهه وغرته، في صباحيته التي مطلعها:

هـذا الصـباحُ وأنـت غـرّة وجهـه فـانعم بـه متواصـل الأفـراحِ
واجعـل صـبوحَك والسـعود تـديره مـن خمـرة الأحـداق لا الأقـداحِ
في منـزل تعلـو القصـور قبابُـه مثـل الحَبـاب علـت بكـأس الـراحِ
تتطلـع الخـدّامُ مـن هالاتهـا مثـل النجـوم وأنـت بـدرُ لياحِ
مـلأوا بشـمس الـراح بـدر زجاجـةٍ تُجلـى علـى زُهـر الوجـوه صـباحِ
داروا عليـك وأنـت مـلءُ عيـونهم مثـل الفـراشِ تـدور بالمصـباحِ
...لـك **غـرّةٌ ضـاءَ الوجـودُ بنورهـا** يا بـدر كـل هدايـةٍ وسمـاح

(١) الديوان: ٢٥٨.
(٢) المصدر نفسه.

إن هذا النص مجلل بالأنوار، بدءاً بنور غرة الممدوح، التي شبه بها الصباح في تشبيه فني مقلوب مبالغة في شمول إشراق الممدوح وإحاطة نوره بكل ما حوله، حتى لتستحيل معه غرته إلى مصدر للنور ينير بضوئه الوجود، محدثاً انبهاراً ضوئياً يخطف أبصار الحاضرين، وكأنهم فراش ينجذب نحو مصباح ويدور حوله.

وتحت تأثير نورانية الممدوح، يسري نوره، فيغدو شعلة من نور، كلٌّ يقتبس منه، فوجهه صباح مشع بالنور، وفرسه ملجم بنور، وسيفه من نور، ورماحه أسنتها من نور، وسرج فرسه يحكي هالة من نور، فالخليفة نور على نور[1]:

مُحيّــاك بــدرٌ بالصــباح معمّــمُ وطِرْفُــك ريــحٌ بالكواكــب مُلجَــمُ
وشُــهبُ الــدياجي للعــوالي أســنّةٌ وســيفُك بــرقٌ في الأعــادي مصــمِّمُ
وسَــرْجُك يحكــي هالــةً فــوقَ مرقــبٍ وأنــت بــه بــدرٌ منــيرٌ مــتمَّمُ

إن هذه النورانية تيمة مدحية ولازمة شعرية تتكرر في غير ما صباحية، لتغدو معنى شعرياً محورياً، تنداح معه في دائرته جميع المعاني المدحية الأخرى كالشجاعة والكرم وعلو المنزلة.

ألا عــمْ صــباحاً أنــت غــرّةُ وجهــه بهـا **نشــر الأنــوار** في كـل مشـهدِ[2]
ومــا أنــت إلا البُــدر نــوراً ورفعــةً وفي كــل مغــنىً قــد حللــتَ بأســعدِ
وأهــــديتني والله يهــــديك نصــــرَه هديــــة بحــــرٍ للســــماحة مُزبــــدِ

إن المتأمل في القيم المدحية التي يحلي بها ابن زمرك ممدوحه لنلفيه يعلي من قيمة النور والإشراق على قيمة الجود والكرم، فتأتي قيمة مدحية أولى، فيما تنزاح قيمة الكرم درجة ثانية، ما يثير الاستغراب والدهشة، ولعل ذلك يرجع إلى علاقته الحميمية بممدوحه الغني بالله، حيث لم يكن يلجئه إلى

(١) الديوان: ١٠٤. بل ويصرح بكونه نوراً على نور، كما في قوله:٤٦٣: نور على نور بأبهى منظرٍ في حسنه لمؤمِّل ما يتأملُ.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٢. وانظر : ٢٩٧.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

الاستجداء لكثرة إغداق النعم عليه من غير ما مسألة[١]. فهو "لم يكن يقل الشعر لغرض التكسب كعادة معظم الشعراء لأنه كان غنياً عن ذلك فاتصاله المبكر بابن الخطيب ثم اتصاله السلطان ابن الأحمر جعل المال متوفراً بين يديه"[٢].

يؤكد ذلك قوله ينعم صباح الغني بالله [٣]:

اِنعمْ صباحاً تجلى وهو ذو خجلٍ لما رأى وجهك الوضّاحَ شمْسَ ضُحى
وغارت السحبُ من يمناك فانبجست لما رأت بحرها بالجود قد طفحا

ولعل احتفاء الشاعر بالنور وعزفه على وتره، مراراً وتكراراً يرجع إلى مسحة صوفية لديه[٤] استقى منها معجمه النوراني، فغدا شعره ينضح بمعاني صوفية.

(١) يؤكد ذلك أنه حينما صرف عن الوزارة بعد وفاة سلطانه الغني بالله، صنع صنيع شعراء العرب في التمدح بالجود والكرم قيمة أولى، وتقديمها على غيرها من معاني المدح. ونكص عن عادته وسيرته الأولى في البدء بصفة النورانية. وهو ما يطالعنا به في قوله مخاطباً السلطان أبا عبد الله متوسلاً بقديم ذمامه والخدم المتعددة من نظامه:

أيعطش أولادي وأنت غمامةٌ تعمُّ جميع الخلق بالنفع والسُّقيا
وتظلم أوقاتي ووجهك نيّرٌ تفيض بها الأنوار للدين والدنيا
وجدّك قد سمّاك ربّك باسمه وأورثك الرحمن رتبته العليا
وقد كان أعطاني الذي أنا سائلٌ وسوّغني من غير شرطٍ ولا ثُنيا
...وقد أكثر العبد التشكّي وإنه وحقك يا فخر الملوك قد استحيا
وما الجود إلا ميتٌ غير أنه إذا نفحت يمناك في روحه يحيا

انظر الديوان: ٥٣٧. وفي البيت الأخير وردت لفظة " نفحت " هكذا في الديوان، والصواب ما ورد في أزهار الرياض " نفخت". ١٥٩/٢.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زمرك: ٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ١١٢.

(٤) فقد عرف عنه من سيرته سلوكه طريق التصوف، فكان" متشوفاً مع ذلك السلوك، مصاحباً للصوفية، آخذا المصدر نفسه بارتياض ومجاهدة... واختص بالفقيه المحدث الصدر أبي عبد الله بن مرزوق روى عنه كثيراً"٤. الذي توجهه بالعمامة الصوفية بعد أن اهتدى إلى طريق الخطبة ومناهج الصوفية٤، وكان ذلك عند تغربه إلى المغرب في دولة السلطان أبي سالم المريني. انظر أزهار الرياض ج٢/ص١٤ وفي هذا التتويج يقول ابن زمرك مرتجلاً:

تـــوّجتني بعمامـــةْ تُوّجـــتَ تاجَ الكرامـــةْ
فـــروض حمـــدك يُزهَـــى مـــني بســـجع الحمامـــةْ

انظر الديوان: ٤٩١. وللاستزادة انظر: ابن زمرك سيرته وأدبه: ١٦٨.

وكان لهذه النزعة الصوفية أثر في اتجاه صباحياته اتجاهاً نورانياً صوفياً إذ نجد انعكاس القول بأزلية النور المحمدي(١) والحقيقة المحمدية(٢) في شعره عامة وصباحياته خاصة، وأن هذا السر المحمدي توارثه الإمام النصري عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فغدا مصدر النور الوجودي الذي ينبلج من غرته ومحياه كما مر سلفاً، وأنه مصدر نور لكل جسم مشع كالشمس تقتبس منه نورها، ليتوج هذا الوصف النوراني بجعله نوراً على نور كما في قوله(٣):

تجلـو لنـا الأكـوان منـك محاسـناً تُـروى علـى مـرّ الزمـان وتنقُّـل
فالشـمسُ **تأخـذ مـن جبينـك نورَهـا والبِشـرُ منـك بوجههـا متهلِّـلُ**
... وجـهٌ كمـا حسـر الصـباح نقابَـه لضـيائه تعشـو البـدور الكُمَّـلُ
... نـورٌ علـى نـورٍ بأبهـى منظـرٍ في حسـنه لمؤمـل مـا يأمـلُ

ومن تجليات النور المحمدي على صباحياته، فكرة التجسد النوراني، وفي هذا يقول ابن زمرك في إحدى مخمساته، يبين فيها تجسد النور المحمدي في إمامه النصري(٤):

أرقـت لـبرق مثـل جفـني سـاهرا يـنظم مـن قطـر الغمـام جـواهرا
فأضـحك زهـر الـروض منـه أزاهـرا **وصـبح حكـى وجـه الخليفـة باهـرا**

تجسم من نور الهدى وتجسّدا

(١) حيث يقول في إحدى المولديات: وأنت لهذا الكون علة كونه ولولاك ما امتاز الوجود بأكوانِ
ولولاك للأفلاك لم تجلُ نيّرا ولا قلّدت لباتهنّ بشهبانِ
انظر الديوان: ٤٩٦. وللاستزادة من شعره الصوفي انظر قصيدته: ٥٠٦ وما بعدها.

(٢) الحقيقة المحمدية: قبل أن يخلق آدم كان قد خلق أول ما خلق النور المحمدي، نور الوجود الأزلي (ومن هنا كان النبي حيا وسيبقى برغم موته الجسدي) وأن هذا النور قد تنقل من زمن إلى زمن، فظهر في صورة آدم، فنوح فإبراهيم فموسى فعيسى.. إلى أن ظهر في صورة محمد، ثم في صورة علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده. انظر: بردة البوصيري ـ قراءة أدبية وفولكورية: هامش ١٥: ٨١. وانظر أيضاً: " فصول في الشعر ونقده :٢٣٠

(٣) الديوان: ٤٦٢، ٤٦٣.

(٤) الديوان: ٣٩٢ ـ ٣٩٣. وانظره يصرح بذلك في قوله في إحدى قصائده الوصفية: ٨٢.
سندٌ أئمته صفاتُ خليفةٍ جمع الجلالة والبسالة والسماحْ
المنْتقى من نور منبَعَثِ الهُدى والمجتبى من عنصر المجد الصُّراحْ

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وهذه الدلالة النورانية تجاوزت شعر الصباحيات لتشمل شعر ابن زمرك عامة(١).

٢. الدلالة الجمالية:

لا نبعد النجعة إن قلنا بأن الصباحية الشعرية إنما هي صباحية جمالية في أبهى صورها الإنسانية والإبداعية، في تجسيد الصورة المثلى العالية والنموذج المشرق في الجمال المطلق، الذي يتمثل في الإمام النصري، فإذا به يفيض بجماله وكماله على الوجود كله الذي يستمد منه جماله الطبيعي، حيث النور والبهاء، وهنا نجد الشاعر في غير ما صباحية، بل في شعره المدحي مغرماً بجمال سيده حد التقديس، فهو معنى الجمال وسره، وله المحاسن والجمال المطلق(٢).

والشاعر ما انفك يتغنى بجمال وجه الخليفة النصري وبهاء غرته كثيراً، والتمدح بهذه الصفة وإن كانت جسمانية فإن "الوجه الجميل يزيد في الهيبة، ويتيمن به، ويدل على الخصال المحمودة"(٣)، واتصاف أمراء بني نصر بالجمال وصباحة وجوههم أمر تظاهرت عليه نصوص تاريخية (٤) وشعرية (٥).

(١) نظر الديوان: ٢٦٢، ١٠٦،١٠٥. ١١٢. ٢٤٥.

(٢) يقول في ذلك: ٢٦٢.

لـك في الكمـال مظـاهرٌ لا تلحـقُ ... فبكـل شـأوٍ للمكـارم تسـبقُ
مـولاي يا معـنى الجمـال وسـرّه ... والكـون ألسـنُه بفضـلك تنطـقُ
في كـل عـين مـن جمالـك قُـرّةٌ ... وبكـل قلـب للتجلـي مشـرِقُ
ولـك السـماحة والملاحـة كلُّهـا ... ولـك المحاسـن والجمـالُ المطلـقُ
شِمْـتَ الصـباحَ بغُـرّةٍ وضّـاحةٍ ... فالكـل عـن ذاك الصَّـبُوحِ يرقّـقُ
كـم رحمـةٍ لـك في القلـوب وهيبـةٍ ... فيهـا الجمـالُ مـع الجـلال موفّـقُ
لا قلـبَ إلا فيـه منـك صـبابةٌ ... لا طـرفَ إلا مـن حيائِـك يطـرفُ

(٣) سر الفصاحة:٢٦٦.

(٤) من ذلك وصف ابن الخطيب السلطان محمد بن يوسف الغني بالله بأنه "مشتمل على خلال وأوصاف قل أن تجتمع في سواه من حسن الصورة واعتدال الخلق، والعراقة في الخير وسلامة الصدر وصحة العقد وشمول الطهارة". وقال عنه أيضاً: "سافر عن وسامة يكنفها جلباب حياء وحشمة". انظر: اللمحة البدرية في الدولة النصرية: ١١٣. وانظر أيضا : ٩٠، ١٠٢،١٢٦.

(٥) مدح الشاعر ابن زمرك آل نصر وأمراءهم بأن وجوههم صبيحة.

من ذلك قوله [١]:

نعمتَ صباحاً ومن للصباحِ بوجهك أبهى الوجوهِ الصِّباحِ
فقد كان وجهك من قبله ينير الدياجي ببدرٍ لياحِ

فهنا يتكئ على أسلوب التفضيل" أبهى للدلالة على أن حسن وجمال وجهه وبهاء طلعته وغرته يفوق كل وجه صبيح، وهو أسلوب يتكرر في غير ما صباحية، من ذلك قوله [٢]:

محيّاك من شمس الظهيرة **أجملُ** وأنت من البدر المكمّل **أكملُ**
وما راق وجه الصبح إلا لأنه رأى منك وجهاً بشرُه يتهلّلُ
فأنعمَ ربي فيه صبحك بالرضا وأعطاك فيه كل ما أنت تأملُ

وقوله [٣]:

لك غرّةٌ ودَّ الصباحُ جمالها ومحاسنٌ تهوى البدورُ كمالَها
وشمائلٌ تحكي الرياضُ خِلالَها وأنامِلٌ تُزجي الأنامُ خلالَها

فهذه الافتتاحيات تنضح بما يمكن أن نسميه صباحية غزلية، وأي شيء أشد أثراً في النفوس من رؤية الوجوه الحسان الصِباح! إن هذه الصورة الصباحية التي تتجسد في صباحة وجه الممدوح ليرتقي بها الشاعر لدرجة أن يخفت نور الصباح إزاءها، وهذا من المبالغة. ذلك "أن أمداح الخلفاء يجب أن تكون نمطاً واحداً يُنحى بأوصافها أبداً نحو الإفراط"[٤] وهنا، يتبدى الصباح في موقف الشغوف المتطلع للاقتباس من حسنه وجماله ووضاءته وبهائه، وتشرق النصوص بأفعال مثل: ودّ، راق،

(١) الديوان: ٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ٨٦.
(٣) المصدر نفسه: ٤٧٤.
(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٧١.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

ذو خجل[١]، وغار[٢]، وغير ذلك من إظهار الصباح عجزه عن اللحاق بجمال الممدوح، ولنا أن نتأمل في هذه الصورة التي عقدها في هذا الاستعراض الجمالي[٣] :

ووجهـك ــ زاد الله وجهـك نضـرةً ــ تُغـير بـه تاج البـدورِ العمـائمُ
فلـو رامَ وجـهُ الصـبح شـبهَ جمالـه حكمنـا بأنّ الصـبح في الأفـق نائـمُ
.. **وعمـتَ صـباحاً** أنـت ناصـرُ دينـه وكافلـه والله كـافٍ وراحـمُ

والشاعر يتكئ على التشخيص في تشبيه الصبح بالإنسان إذ جعل له وجهاً، وهو يحاول عبثاً أن يضاهي شبه جمال الممدوح، فما يلبث أن يرجع بخفي حنين، وتبرز هنا صورة للصبح فيها من الإدهاش، فلم يعد هذا الصبح طبيعياً كما نعهده، بل بدا لنا في صورة إنسان نائم يغط غطيطاً، على سرير الأفق، وهذه الاستعارة أتت فعاليتها في تجلية الدلالة الجمالية للممدوح، في إسناد وصف النوم "نائم" لكائن حي من إنسان وغيره، أدخل الصبح في عالم بني الإنسان، فهذا الصبح الطبيعي قد تخلق بهذه العلاقات الإسنادية ليغدو "صبحاً شعرياً"[٤]؛ ليرشحه لخوض مضمار المنافسة مع الممدوح البشري، فيتمنى مضاهاة جماله، لكن هيهات، ذلكم أن النائم غالباً ما يذهب رونق وجهه وبهاء طلعته، فيسلب الشاعر من الصبح النائم إشراقه، ليستفرد الممدوح بحظوة الإشراق وجمال الغرة والطلعة والطلة.

وفي هذه الصورة الشعرية التي تظهر استحالة حصول الصبح على جمال يقارب جمال الممدوح، وظف حرف الشرط "لو "الذي خرج إلى معنى التمني وهو أسلوب إنشائي، والغرض البلاغي منه "هو

(١) الديوان: ١١٢.
(٢) المصدر نفسه: ٧٠.
(٣) المصدر نفسه: ٧٩.
(٤) الجملة في الشعر العربي: ١١

الإشعار بعزة المتمنى وندرته، لأن المتكلم يظهره في صورة الممنوع، إذ أن لو تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط"[١].

إن الصباح في أبعاده الجمالية ليحيل الصباحية إلى قطعة من جمال، تشع بأفعال الحسن وأوصاف الأبهة، فهو بمثابة ريشة فنية يرسم بها الشاعر الأشياء، ويلونها بنوره وإشراقه وجماله، وبعد أن رأينا كيف شكل الصباح معادلاً موضوعيا لجمال سيده، لكن بطريقة عكسية، فإذا كان الصباح آية الجمال الكوني نوراً وإشراقاً، فإن ممدوحه قد فاقه وصفاً وصفة.

وهكذا نجد الشاعر يوظف إيحاءات الصباح وتداعياته الجمالية على كل ما يتعلق بمخدومه، وكأن جماله المستقى من سنى الصباح ووضاءته يسري إلى كل ما يمت إليه بصلة، كوصف رقاع مخدومه وخطه[٢]، وهداياه وتحفه[٣]، ودروعه ومِخْتمة[٤].

فمن صباحياته الوصفية بريشة الجمال قوله يصف إحدى رقاع سيده[٥] :

وتحفـــةِ طـــرسٍ أتتـــني عِشـــاءً فقابلـــتُ منهـــا مُحيّـــا الصـــباحِ
ســـكرتُ عليهـــا بكـــاس الحـــديثِ ومـــا مُـــدَّ فيهـــا إلى الـــراح راحـــي
وقـــد واصـــلت لي مـــن ظرفهـــا زمـــان اغتبـــاقي بوقـــت اصـــطباحي
ونزهّـــتُ طـــرفيَ في روضـــها وغازلـــتُ منهـــا عيـــون المِـــلاحِ

نلاحظ توظيف الصباح بدلالته الجمالية ليسبغها على رقعة الخليفة فتستحيل تحفة رغم أنها أتته عشاء، وكأن الصباح بجمال محياه وحسن طلته أصبح مقياساً للجمال يتمثل به فإذا ما رأى منظراً

(١) علم المعاني: ١١٣.
(٢) الديوان: ١٠٣. ٧٤.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٢، ١١٥.وانظر: ٢٤٦.
(٤) المصدر نفسه: ٣٢٢،٣٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ٧٤.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

حسناً بهياً ذكّره هذا المنظر بجمال الصباح وإن كان بالليل. وهذه الدلالة الجمالية نجدها أيضاً في وصف رقعة ابن الخطيب(١).

إن الدلالات الجمالية لتمتد إلى ما ظاهره غير الحسن، فيسبغ عليه من نفثات الصباح وفيوضات روح الإمام النصري عليه، وهو ما نطالعه في وصف دروعه الحديدية وعدده الحربية، فبدت لنا ذات حسن وجمال أخاذ(٢):

اهنـــأ بيـــوم البشـــائر يقبـــلُ ... وانعـــم بصـــبح بشـــره متهلـــلُ
اهنـــأ بمقـــدمك الســـعيد فإنـــه ... للنصـــر والفـــتح المبـــين مجـــددُ
..أبـديت مـن عُـدد السـلاح ذخـائراً ... **بجمالهـــــا** يتمثـــل المتمثّـــلُ
مَوْشـــيّةَ الأعطـــاف رائقـــةَ الحُلـــى ... أبـــدى بـــدائعَها الإمـــامُ المفضـــلُ
لبسـت مفاضـة عسـجدٍ مـن فوقهـا ... وبطيّهـــا بـــيض الصـــفائح تصـــقلُ
وببعضـــها مـــرآة هنـــدٍ أثبتـــتْ ... فـــترى الوجـــوه بصـــفحها تتمثـــلُ
قـد صـففت مـن فـوقهنّ كواكـبٌ ... فزهـــت ببـــدرٍ بالنجـــوم يكلّـــلُ
مـا كنـت أحسـب قبـل رؤيـة **حسـنها** ... أنّ الحديـد علـى الجسـوم يفصّـلُ
حـتى رأيـت مـن الحديـد مجاسـداً ... قـد فصّـلت مـن فـوق مـا يتخيّـلُ
هـــنّ الجســـومُ وروحهـــنّ خفيفـــة ... نصـــر الـــذي يـــؤتي الفتـــوح ويجـــزلُ
قـد **أجملـت** فيهـا **المحاسـن** كلهـا ... لكـــنْ مـــن الله الوقايـــة **أجمـــلُ**

إن ما يثير الغرابة هنا إضفاء صفات الجمال والحسن على عُدد السلاح من دروع ومجاسد وصفائح وهي من حديد، حيث الصلابة والقوة والثقل، ثم هي تكون كأحسن ما يلبس، وألين ما

(١) انظر: ٣٢ من البحث.
(٢) الديوان: ٣٢٣،٣٢٢.

يتحرك ويتعطف، فجمع بين الخشونة والليونة، إذ غدت قمصاناً ومجاسد غاية في الجمال والحسن، لكن من حديد، موشية ومزخرفة ببديع الألوان من أبيض وفضي وأصفر وذهبي، بلغت من الشفافية والصقالة، وكأنها مرآة هند، رائقة الحلى، وكأننا أمام عروس حسناء تزينت بأبهى الحلل والحلى.

واختياره للفظة الإمام دون الخليفة أو السلطان أو الملك، للدلالة على قدسيته الدينية، ما يفسر سر جمالها الأخاذ إذ أخذت من روح الإمام النصري الإشراق والبهاء والجمال، فإذا بجسومها الثقيلة تتحول إلى خفيفة بفعل نفثات روحانية للإمام النصري. ويعبر عن هذه الدلالة الجمالية معجم جمالي: بجمالها يتمثل المتمثل، رائقة الحلى، بدائعها، حسنها، المحاسن، أجمل، فوق ما يتخيل.

٣. الدلالة الزمانية:

إن هذه الصباحيات استمدت وصفها وكينونتها من الصباح زمناً، ومقوماً فنياً، وما افتتاحها بالتحية الصباحية التي تستهل بذكر الصباح والتحية به إلا خير دليل على ارتباط الصباحية الشعرية بالصباحية الزمنية؛ وهذا ما نطالعه في غير ما تقديم لها، من مثل قول الجامع: "أنشده صبيحة يوم، شاكراً"، "وقال يصابحه رحمة الله عليه بالتحية"، "وقال أيضاً من تحيات الصباح.."، لذلك فإن الصباح يمثل زمن الإنتاج الشعري.

إن للصباح فترات زمنية، تمتد من نصف الليل الآخر إلى الزوال، لهذا نجد حضوراً زمنياً لجميع ساعات الصباح كالسحر، والصبح، والصباح، والإصباح، والبكور، والضحى، والظهيرة، وهذه أزمنة طبيعية، كما أنه يستدعي أزمنة رديفة له كالعشاء والليل والليلة الليلاء، والنهار، واليوم والأمس، والساعة والشهر، زمان الاغتباق، وقت الاصطباح، وكذا مطلق الزمن كالدهر، والزمن، إضافة إلى الزمن النفسي أو الشعري الذي يأتي طيّ الصباحية، فيتلبس بدلالات قطبي التحية الصباحية، كزمان السعود، ويوم أنس، الدهر المبتسم، الزمان المبتهج.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

إن ذلكم الزمن الشعري لتتنازعه دلالات جزئية، فالصباح زمن التفاؤل، وزمن البشائر والسعود، وزمن اليمن والبركة[١] وزمن اللذة والانتشاء[٢]، وزمن النصر، وزمن بثّ الحياة وتجددها.

يبدو أن للشاعر قصة نفسية مع الصباح، يحتفي به ويهيم به عشقاً، من أول طلعته، يترقبه كما يترقب الحبيب قدوم حبيبه، وتكتمل النشوة أوجها عند بزوغ فجر الصبح، وتباشيره، فالشاعر يطالعنا في إحدى صباحياته الخمرية، في زمن السحر، وهو يحث صاحبيه أن يشاركاه هذا الترقب، موظفاً بعض أساليب الإنشاء من نداء، "يا نديميّ" وأفعال الأمر "قربا وارقبا، بما فيهما من جناس معكوس، خلقا نوعاً من الإيقاع الموسيقي احتفاء واستعداداً بمقدم الصباح، طالباً منهما أن يممما وجهيهما تلقاء الشرق، "عله شمعة الصبح أسرج ". وهنا، شبه الشاعر الصبح في أول تباشيره بالشمعة بلونها وشعاعها الأبيض المشرب بحمرة، وهنا، ندرك سبب هذه اللهفة والترقب والعشق للصباح، إذ أنه زمن بث الحياة وتجددها في الكون والطبيعة والرياض، فإذا بنواويرها وأزهارها كالسوسن والبنفسج والأقحوان تصحو من نومها، وتتفتح، فتكشف عن جمالها وبهائها، وقد عبر عن هذا البعث والإحياء المتجدد كل صباح بلفظي: "أطلع "و"استرد" اللذين يحيلان على معاني البعث والإحياء، واسترداد الروح، التي نفث الصباح فيها من روحه وإشراقه، وهذا الفضاء المكاني الطبيعي الذي يمثله الروض بما فيه من رياحين وأزهار ما كان ليتخلق ويحسن ويجمل إلا في ظل زمن الصباح. كما يقترن بهبوب النسيم المدرج بأريج الروض ونفحاته، ولولا الصباح ما استطاعت الأشجار الضخمة أن ترسل ظلها سجسجا، وهو كذلك يعشق الصباح لما فيه من مجالس أنس وسرور، وخمر تفرج الهم حد تعبيره، فزمن الصباح أصل جمال الكون ومبعث تجدد الحياة[٣]:

(١) الديوان: ٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢٧٤.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٨،٢٧٧.

يانـــــــديميّ **سُـــــــحرةً** قـــــرِّبا الكـــــاسَ وامزُجـــــا
وارقبـــــا الشـــــرق علّـــــه شمعـــــةَ **الصـــــبح** أســـــرجا
أطلـــعَ **الصـــــبحُ** سوســـناً واســـــــتردَّ البنفســـــــجا
وأقاحـــــــــاً حســـــــــبتَه كـــــأن ثغـــــراً مفلّجـــــا
شـــــاربَ الخمـــــر إنهـــــا تشـــــربُ العقـــــلَ والحِجـــــا
فـــــاترك العقـــــل جانبـــــاً وتـــــرى الهـــــمَّ أُفرجـــــا
يا نســـــــيماً مـــــــدرّجاً نفحـــــة الـــــروض أرّجـــــا
قـــــل لبـــــاناتِ لَعْلـــــعٍ ترســـــل الظـــــلّ سجســـــجا
فـــــوق ظـــــبيٍ مهفهـــــفٍ أكحـــــل الطـــــرف أدعجـــــا
فضـــــح الغصـــــن قـــــدُّه في كثيـــــــبٍ ترجرجـــــــا
وجـــــلا **صـــــبح غـــــرةٍ** تطلـــــع **الصـــــبحَ أبلجـــــا**

والنص كما يبدو يجلله معجم زمني يتمثل في ذكر ألفاظ: سُحرةً المنصوب على الظرفية الزمانية، وتكرار للفظ الصبح أربع مرات، ولفظ "صباح آخر القصيدة، تعميقاً للدلالة الزمنية المهيمنة على النص.

كما يهيم الشاعر بالصباح كونه زمناً للعبّ من اللذة والمتعة، والانتشاء من خمرة الصبوح، إذ يمثل إطاراً زمانياً لفضاء مكاني يقضي فيه ساعات الأنس واللهو سواء كانت في مجلس أنس أو نزهة طردية بين أحضان الطبيعة، وهنا يجتمع الزمان بالمكان ليؤثثا جو الصباحية الماتع. وبذلك يعد الصباح زمناً مثالياً لاغتنام اللذة واقتناص السرور. من ذلك قوله في وصف مجلس أنس[1]:

(١) الديوان: ٣٠٠،٢٩٩.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

عمْ صباحاً فأنت نورُ الصباحِ واسرح اللحظَ في الوجوهِ الصِباحِ
واغتنم للسرور يوماً فيوماً وصل اليُمنَ دائماً بالنجاحِ
واجتلِ الشمسَ من سماءِ زجاجٍ تجلبُ الأنسَ من جميع النواحي
ما جلاءُ النفوسِ في يوم أنسٍ غير راحٍ تجلى على أفقِ راحِ
من مدير يزهى بورد خدودٍ فوق ثغر يزهى بنور الأقاحِ
واقتنص في القصور كل مهاةٍ فاتنات اللحاظ خودٍ رداحِ
لاعباتٍ بكل قدٍّ رطيبٍ لعب الغصن في مهبّ الرياحِ
واقتنص في القفار كل غزالٍ بابلي اللحاظ عذب المزاحِ
يرجع اللحظ عن سقيم جفونٍ تنفث السحر في القلوب

يمثل زمن الصباح هنا رمزاً للذة والمتعة والانتشاء، لما تعقد فيه من مجالس الأنس واللهو، فالشاعر يدعو إلى اغتنام كل لحظاته سعادة وأنساً، بشرب الخمر، والتلذذ بجمال النساء والجواري، موظفاً أفعال "اغتنم" و "اقتنص" مرتين، وكأن الزمان يشكل هاجساً لدى الشاعر، لهذا نجده يكرر الدعوة إلى اغتنام واقتناص لحظات المتعة يومياً قبل تجهم الزمان، وهو ما نجده في قوله: "واغتنم للسرور يوما فيوماً.. وصِلْ" بما فيها من دعوة لاستغلال أمثل للزمن كله متواصلاً في اللذة دون انقطاع، بما أفادته الفاء من تعقيب وتوالٍ، يعززه الأمر بوصل الزمان. وهنا يتحول الصباح زمناً مخصوصاً إلى مطلق الزمان. وهذا الأمر غير خاص بابن زمرك، بل يشكل ظاهرة نفسية عامة لدى الأندلسيين، فهم كانوا يعيشون في نعيم مادي وأجواء سحرية حالمة، تتمثل في الحياة اللاهية وأجواء الطرب وجانب الطبيعة الأندلسية برياضها وأزهارها ومنتزهاتها، ومجالس الأنس والشراب والغلمان والجواري، "ذلكم النعيم كان يقابله على المستوى الخارجي الفتن والتقلبات المذهلة مما جعل الشاعر الأندلسي يطلق الدعوات المكررة إلى اللهو، واغتنام الفرصة قبل فوات الأوان، دعوات إلى اختلاس لحظات المتعة قبل تجهم الدهر"[(١)].

(١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : ٥١.

كما يمثل الصباح زمن الفأل الحسن، فالشاعر يتيمن به، فلطالما رآه حاملاً للبشائر والسعود والفتوح والأعياد والنصر [1]؛ لهذا كان يفتتح به إبداعه الشعري. من مثل قوله[2]:

بُشرى على صفحة الإصباح ترتسمُ لذلك يصبح ثغرُ الثغر يبتسم
جاءت تبشر بالإقبال مملكة بعزة الله في الأملاك تحتكمُ
وافت تخبر أنّ العيد عائده بالسعد يبدأ والإسعاد يُختتمُ

ما كان لهذا المطلع أن يتوهج فقط بلفظة بشرى، لولا ارتسامها على وجه الصباح، وهنا يغدو الصباح زمناً شعرياً من خلال الاتكاء على تشخيص الصباح، والثغر، فإذا بالصباح إنسان ترتسم على ملامح وجهه بشرى غامرة، فسرت، سنا ابتسامته لتغمر ثغر البلد، فيشخصه بإنسان مبتسم، يبادله الابتسامة بمثلها تجاوباً شعرياً، وفي هذا التوظيف المجازي للغة، تخلقت كائنات لغوية جديدة، بدلالة جديدة، فيتلبس زمن الصباح بالابتسام والسرور. ويعزز هذه الدلالة الشعرية للزمن توظيفه للصباح مصدراً وفعلاً "الإصباح، يصبح". أما المصدر فيدل على أن هذه البشرى أضحت صفة ثابتة وقارة بالصباح، وأما الفعل "يصبح" فيدل على حدوث وتجدد الابتسامة التي هي علامة البشرى زمن الصباح، ويعد اختياره للفعل "يصبح "دون "يكون "أو يغدو "مثلاً، اختياراً أسلوبيا، (ليظاهر بلفظه وزمنه حدوث فعل الابتسام صباحاً) أراد به الجمع بين معنيين: تجدد البشرى، ومعنى تكوّن الابتسام.

وتتناغم مع هذه الدلالة الزمانية الفرائحية أفعال مضارعة: ترتسمُ، يبتسمُ، تبشّرُ، تخبرُ، يُبدأ، يُختتمُ، مما يدل على تجدد البشرى على المملكة النصرية.

(١) انظر: لديوان: ٦٤، ٧١،٧٢. وانظر: ٧٨، ١١٤.ص١٨٨.ص٣٠٠١، ٣٠٠. ٣٢٣،٤٥٠ .
(٢) المصدر نفسه: ١٨٨ وانظر :٤٦٢.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

المبحث الثالث: البناء الفني للصباحيات:

إن نمط شعر الصباحيات يتميز ببناء هيكلي خاص، فمنه ما يأتي على شكل مقطعات وهو الأقل، بيد أن الصباحية تأتي غالباً قصيدة مكتملة الأركان، والقصيدة بحسب التحديد النقدي هي ما بلغت سبعة أبيات أو عشرة فأكثر(١). وإن كان موضوع الصباحية الرئيس المدح السلطاني، فإنها غالباً ما يمزج فيها بين المدح وأغراض أخرى، وهي بهذا قصيدة مركبة كما يقول حازم القرطاجني" والقصائد منها بسيطة الأغراض، ومنها مركبة، والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفا، والمركبة هي التي يشتمل الكلام على غرضين، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق"(٢)، فتأتي صباحية مدحية في مليكه وفي وصف كل ما يتعلق به كوصف ركابه، ووصف قصره، ووصف دروعه، ووصف رقعة بخط يده، ووصف هداياه وشكر إنعامه وهو كثير، أو وصف مجلس أنس انتظم بشمله، أو وصف نزهة طردية، أو مدحية مع تهنئة بعيد أو بنصر أو إبلال من مرض، ونادراً ما تأتي صباحية يمتزج فيها المديح النبوي بالسلطاني، أو تكون مدحية إخوانية. وقلما تأتي الصباحية مدحاً خالصاً(٣).

لقد وجدنا علاقة بنائية ودلالية وفنية، تتشكل بين الصباحيات والصباح، سواء وردت التحية الصباحية أو دال الصباح مطلعاً، أو وسطاً، أو خاتمة.

المطلع الصباحي:

قبل الخوض في ماهية عنصر افتتاح الصباحية، يجدر بنا أن نقف وقفة عند مصطلحين نقديين يتنازعهما موقع أول القصيدة ومبتداها، وهما المطلع والمقدمة، وما الفرق بينهما؟ لقد أضحى من

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده:١/١٥٨.
(٢) منهاج البلغاء:٣٠٣.
(٣) الديوان: ٧٨، ص١٠٤، ص٢٤٠. ص٤٥٠.

المتعارف عليه بين الدارسين المحدثين "أن المطلع تقصد به الدلالة على البيت الأول من القصيدة، وأن المقدمة تقصد بها الدلالة على كل العناصر السابقة للموضوع"[١]، أي موضوع القصيدة. فيما ضبط الدكتور حفني دلالة المطلع بدقة بأنه "العنصر الأول من القصيدة وينطبع غالباً على البيت الأول وما له ارتباط به من حيث الدلالة"[٢]، ومعنى ذلك أن للمطلع ظلالاً تمتد إلى ما بعده من أبيات، لاسيما البيت الذي يتلوه وأن هذه الامتدادات تتفاوت قوتها ووضوحها تبعا لقرب البيت من المطلع وبعده عنه[٣].

لقد تنوعت مقدمات القصيدة العربية ما بين مقدمات طللية وغزلية، وهي مقدمات أساسية، وأخرى ثانوية كالبكاء على الشباب ووصف الطيف[٤]، ثم استحدثت مقدمات جديدة بحسب تطور العصر، إذ وجدنا مقدمات خمرية وطبيعية وبحرية وحجازية وغيرها. ويبدو أن المقدمات الغزلية تربعت على باقي أنواع المقدمات التي استهلت بها قصائد المديح في الشعر الأندلسي، حتى غدت ظاهرة شائعة في أشعار الأندلسيين بصفة عامة"[٥]، بمن فيهم ابن زمرك، فكانت أكثر مقدماته ما بين غزلية[٦]وصباحية، وإن لم نعدم وجود مقدمة طللية [٧]ومقدمة ربيعية[٨]، ومقدمة حجازية، ومقدمة صبوحية[٩].

ولا شك أن المطلع الصباحي يمثل بحق إضافة جديدة ونقلة نوعية في مطالع القصيدة العربية وخاصة الأندلسية، اختص بابتكارها شاعرنا ابن زمرك.

(١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية: ١٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) شعرية المطلع في القصيدة العباسية:٨٦.
(٤) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي: ٧١ إلى ص١٠٧.
(٥) مقدمة القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي بين النمطية والتنوع:٧٦. وانظر أيضاً: قصيدة المديح الأندلسي، دراسة تحليلية: ٢٥. ؛ قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية " عصر الطوائف":١١٩.
(٦) ديوان ابن زمرك: ٢٥٧,٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٨٦.
(٧) المصدر نفسه: ٤٥٨.
(٨) المصدر نفسه: ٢٥٠.
(٩) المصدر نفسه: ٥٣٨، ٥٤١

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وهو يأتي على نمطين: الاستهلال بالتحية الصباحية وهو الكثرة الكاثرة لدرجة أن التحية كانت بمثابة قيد في إطلاق التسمية بالصباحية لدى الجامع أو ابن زمرك، والنمط الثاني، الاستهلال بدال الصباح.

النمط الأول: الاستهلال بالتحية الصباحية: إن الشاعر كان له منزع فني في بداءة قصائد ومقطوعات صباحياته بمطالع صباحية، تتضمن التحية بالصباح بصيغ متعددة، نحو قوله "اِنعَمْ صباحاً" وهي الصيغة الأكثر دوراناً، إذ تواتر ذكرها (١٥) مرة، بعدها "عِمْ صباحاً "(٦) مرات، ثم "نعمتَ صباحاً" (٣) مرات، ثم "أنعِمْ صباحاً" مرة واحدة، كما وردت التحية بصيغ أخرى منها: "أنعمَ ربي صبحك"(١) و "أنعمَ الله صباحك"(٢) و" وانعم بصبحٍ"(٣) و "عليك تحية"(٤).

ونجد أن صيغة "اِنعَمْ صباحاً" أكثرها استعمالاً، رغم كونها تحية جاهلية، لأمرين: أولهما، أنها تحية ملوكية، فاختص بها مليكه لما لها من دلالة الدعاء له بالملك والبقاء والسلامة من الآفات، وثانيهما، للغنى الدلالي للفظي "أنعم" و "صباحا "، من الدعاء لمليكه بكثرة النعيم والخير والترفه ونعومة العيش، والمال والأهل، والمسرة والفرح، ولما تحيل عليه كلمة "صباحاً" من دلالة زمنية، ودلالة نورانية، ودلالة جمالية مسخرة لمدح مليكه. فأضحت "أنعم صباحاً" قطباً محورياً أو مركزياً تستقطب جل معاني الإنعام والصباح، بما تحويانه من تداعيات وانزياحات دلالية(٥).

إن الغنى الدلالي لـ "أنعم صباحاً "ـ وكونها مطية سهلة، يلج منها إلى المدح مباشرة دون احتياج إلى اختلاق وسيلة لحسن التخلص ـ رشحها لأن تكون مطلعاً ينضح ببراعة الاستهلال، فنلفيها تناسب بمدلولاتها المتعددة موضوعات الصباحيات المفتتحة بها، فإن كان الموضوع في التهاني والبشائر

(١) الديوان: ٨٦. ذكرت مرة واحدة.
(٢) المصدر نفسه: ٢٤٠. ذكرت مرة واحدة
(٣) المصدر نفسه: ٣٢٣.
(٤) المصدر نفسه: ٣٤٥.
(٥) سنتناول هذه الدلالات في المبحث الخاص بها.

والفتوحات والأعياد والإبلال من المرض والشكر على الهدايا والنعم، يترجح قطب "أنعم "بإيحاءاته الغنية بالفرح والسرور والنعيم والدعة والرفاهية ورغد العيش ولينه وهنائه، وإن كان الموضوع في الوصف سواء أكان وصف مجالس الأنس والطرديات أم وصف الهدية أم وصف الرسالة أم المدح، فإنه يترجح قطب "الصباح "بدلالاته وإيحاءاته النورانية والجمالية والزمانية.

ومن مطالعه الصباحية المفتتحة بالتحية الصباحية يستأذن فيها الخليفة في السفر إلى تفقد أملاكه ثاني عيدٍ[1]:

اِنْعَمْ صباحاً بثاني العيد ياملكاً أيامُه كلُّها عيدٌ وأفراحُ
قضّيتَ بالأمسِ ما قضّيتَ من سُننٍ بها تنعّمُ أجسادٌ وأرواحُ
هذا زمانُ سعودٍ لا انقضاءَ له في وجهه غررٌ تبدو وأوضاحُ
فاستقبل الدهرَ بالراحات في دعةٍ والراحُ تُجلى عروساً فوقها الراحُ
.. والعبدُ يستأذن المولى على سفرٍ بالجسم والقلبُ في مثواك يرتاحُ
بقيتَ للدين والدنيا إمام هدى تطيّبُ الدهر في علياه أمداحُ

أتت هذه الافتتاحية متناغمة في دلالتها مع جو القصيدة حيث العيد، فتكتسي دلالة جديدة تمتح من أجواء العيد الطربية الفرحة المرحة، حيث السرور والتوسع في الملذات من أكل وشرب ونزه ومجالس لهو وانس واجتماع الأهل والأحباب، وهو ما نطالعه في بنية القصيدة من تناوله للحديث عن الصبوح ووصف الخمرة ومجالسها تعميقاً لجو الفرحة والمتعة والسرور.

وهنا يحضر المعجم المشحون بدلالات المسرة والحبور والنعمى: أفراح، تنعم، السعود، الراحات، دعة، وحتى لفظة الراح التي اختارها الشاعر هنا من بين أسماء الخمرة الكثيرة "كان اختياراً نفسياً

(١) الديوان: ٦٤.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

للدلالة على ارتياح عام لهذا الجو المنطلق"[١]، وقد تكررت أربع مرات، بمعنيين مختلفين من باب الجناس التام، الخمر والكف، وهذا التكرار ليس اعتباطاً وإنما ليتساوق مع الجو العام المرح.

ولعل لفظة "انعم" بصيغتها الدعائية هنا تغذي هذا الجو بدلالاتها المتعددة من الإنعام ورغد العيش والفرح والسرور، ومن هنا جاء التوظيف الفني لهذه الافتتاحية بما يجلي براعة في الاستهلال المتساوق مع البنية الموضوعية للقصيدة، ذلك أنه "إذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجئ بعده من الكلام"[٢].

وبراعة الاستهلال تكاد تطرد في جميع صباحياته، إذ لا نجد نبوّا ولا تنافراً بين التحية مطلعاً وموضوع القصيدة، بل تناغماً وانسجاماً لتشكل لحمة موضوعية وبنائية وفنية. "وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً بتلقي ما بعدها"[٣] من ذلك قول ابن زمرك يهنئ مليكه بالإبلال من المرض، ذاكراً نعماً أهداها إياه[٤]:

اِنعَمْ صباحاً بالبشائر والنعمْ وادعُ الزمان يقول مبتهجاً: نعمْ
فالدهر وضّاح الجبين وثغره بالبِشر عن شنب الثغور قد ابتسمْ
يا واحد الدنيا ومالكها الذي تفديه من لمم الحوادث بالأُممْ
مدّت لراحتك السعادة راحةً لتزيل عنك من الشكاية ما ألمْ
فاستقبل الصنع الجديد مبلَّغاً ما شِئْتَ في النفس النفيسة والحُرَمْ

(١) جماليات المعنى الشعري" التشكيل والتأويل": ٨٦.
(٢) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: ٤٣١.
(٣) منهاج البلغاء: ٣٠٩.
(٤) الديوان: ١١٤.

انظر كيف يعزف على وتر النعم، فهي بمثابة كلمة السحر ومفتاح القصيدة، إذ كررها في صدر المطلع فعلاً واسماً، فعلاً دالاً على الدعاء للخليفة بالنعمة آناً ومستقبلاً، في ديمومة وتجدد لهذا النعيم، واسماً دالاً على الثبات، ليجمع بين معنيي التجدد والثبوت، كما وظف من جنس لفظ انعم حرف الإثبات "نعم" في نهاية البيت، وفي هذا الجناس الاشتقاقي "انعم والنعم ونَعم" تكرار يصب في معنى تحقق نعمة العافية وهي تاج النعم، وهو الغرض الأول من القصيدة التهنئة بالإبلال من المرض، عزز هذا المنحى المعنوي الإرداف بلفظة البشائر، فتحققت البراعة هنا لأن المطلع ينبغي أن "يكون دالاً على غرض القصيدة، وأن يكون مع ذلك عذب المسموع"(١).

وعزز جمالية هذا المطلع التصريع بين الشطرين وزناً وتقفية "النعم ـ نَعم" بما خلق من جرس موسيقي رائع "فإن للتصريع في أوائل القصائد طلاوة وموقعاً من النفس، لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها، ولمناسبة تحصل لها بازدواج صيغتي العروض والضرب، وتماثل مقطعها لا تحصل لها دون ذلك"(٢). وجاءت قافية القصيدة بروي الميم الساكنة تعميقاً لدلالة "انعم" توافقاً وتجانساً مع موضوع الصباحية.

ومن هذا المطلع ينداح معجم لغوي يفيض بمعاني البشر والابتهاج على القصيدة ككل، مبتهجاً، البشائر، البشر، ابتسم، راحتك، السعادة، راحة، تهلل. وفي هذه المطلع يتكئ الشاعر على عنصر التشخيص لإبراز مشاركة الكون زماناً ومكاناً في الابتهاج بنعمة الصحة لمليكه، فقد شبه الشاعر الدهر والزمان بإنسان، على سبيل الاستعارة المكنية، يدعوه مليكه فيجيبه ملبياً بكل فرح وابتهاج، فكأن الزمان طوع بنان إمامه يحركه أنى شاء ومتى شاء" وادع الزمان يقول مبتهجاً نعمْ"، كما يخلع عليه أوصافاً إنسانية أخرى تظهر ابتهاجه، فهو وضاح الجبين، ذو ثغر مبتسم، موظفاً الجناس

(١) منهاج البلغاء: ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٣.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

بين ثغره "الفم "والثغور "البلدان". وهنا جمع الشاعر بين المكان والزمان إشارة على شمول البهجة والفرح والسرور بعودة عافية الخليفة، كعودة العافية للحياة والكون.

وإذا كان الشاعر فيما سبق قد ضرب على وتر النعم، فإنا نراه في كثير من مطالع مقطوعاته وقصائده يضرب على وتر الصباح بما فيه من إيحاءات ودلالات نورانية. من ذلك قوله مادحاً الغني بالله في يوم أنس(١):

عمْ صباحاً فأنت نورُ الصباحِ واسرح اللحظَ في الوجوهِ الصِباحِ
واغتنم للسرور يوماً فيوماً وصل اليُمنَ دائماً بالنجاحِ
واجتلِ الشمسَ من سماءِ زجاجٍ تجلبُ الأنسَ من جميع النواحي
ما جلاءُ النفوسِ في يوم أنسٍ غير راحٍ تُجلى على أفقِ راحِ

أول ما يطالعنا في مطلع هذه الصباحية تكرار دال الصباح باشتقاقاته ثلاث مرات .كما تكرر في النص السابق "انعم "باشتقاقاته ثلاث مرات أيضاً . بدلالاته الثلاث؛ الزمانية(صباحاً) والنورانية (نور الصباح) والجمالية(الوجوه الصِّباح)، بما يجعل من هذا المطلع عنواناً يؤشر على موضوعات القصيدة الثلاث (مدح الخليفة وسط مجلس أنس زمن الصباح)، وبما يحيل على بؤرة القصيدة ودلالاتها المركزية التي تجعل من الخليفة قطباً مركزياً للنور(٢)، و" في أغلب النصوص الشعرية القديمة تقوم المطالع أو المقدمات مقام العنوان في القصيدة الحديثة، فتمثل خيطاً أساسياً إلى حل شفرة النص"(٣)، فشفرة النص هنا هي جملة "فأنت نور الصباح "وهي "الجملة المفتاح"، ومركز الإشعاع الدلالي في القصيدة(٤).

(١) الديوان: ٢٩٩ . ٣٠٠.
(٢) انظر المبحث الخاص بالدلالة النورانية.
(٣) النص وآليات القراءة:١٢
(٤) الجملة في الشعر العربي: ٢٠٣.

كما يعد الصباح معادلاً موضوعياً للممدوح، وفي اتساق المطلع مع موضوع النص تتجلى براعة الاستهلال. كما عزز من فنيته وإيقاعه الموسيقي تكرار دال الصباح ثلاثاً، وتصريعه، واختيار حرف الحاء روياً، الدال على الانتشاء واللذة[١]، وهو اختيار يكاد يشكل ظاهرة قافوية في شعر ابن زمرك من كثرة بناء قصائد الصباحيات عليه[٢].

وكذا توظيفه للجناس الاشتقاقي: اجتلِ، جلاء، تجلى، و (صباح وصِباح)، وجناس تام بين: راحٍ وراحٍ، فمثل هذا التجنيس ليس مجرد صنعة سطحية، إن اللعب باللغة كما قال د. محمد مفتاح "هو جوهر العمل الأدبي الأصيل والشعر منه خاصة"[٣]، وتكرار كلمات وحروف بعينها، كتكرار يوم ثلاث مرات، وتكرار حروف صفيرية كحرفي السين والصاد. وهذا التكرار لوحدات صوتية جرسية منتظمة تولد إيقاعاً داخلياً بين الصيغ والدلالات والكلمات، ومنه يتولد التوازي وهو ما حقق وظيفة شعرية عالية في هذه الصباحية.

كما غني هذا المطلع الصباحي بأسلوب إنشائي تمثل في أفعال الأمر: عِمْ، اسرح، اغتنمْ، صِلْ، اجتلِ، خرج إلى معاني الدعاء وطلب العبِّ من المتع واغتنام السرور، واجتلاب الأنس، من خلال النظر إلى الوجوه الصباح والاصطباح بخمر الصباح زمن الصباح، إذ أن الزمن الأمثل لحصول فعل اللذة والانتشاء هو زمن الصباح. وفي الخطاب بضمير المخاطب ظاهراً أنت، ومستتراً في أفعال الأمر المتقدم ذكرها، يمزج بين وصف مجلس الأنس ومدح الخليفة كونه ـ أي الخليفة ـ صدر هذا المجلس الذي يفيض بنوره ويبث سناه على كل من يحيط به من صباح وصبوح ووجوه صباح، وينهي القصيدة كما بدأها بإشعاعات صباحية، وبالدعاء لمليكه بدوام الغبطة والرفعة[٤]:

(١) إن حرف الحاء يجسم كل الأحوال، وأنه قاسم مشترك بين المتعة والألم، لأن الإنسان إذا ارتاح والتذ قال: أح، وإذا تألم أو تعذب قالها كذلك. انظر فنية التعبير في شعر ابن زيدون: ٤٤.

(٢) انظر على سبيل المثال: الديوان: ٦٤، ٧٣، ٧٥،٧٨، ١١٢، ٣٧٣،٣٧٤، ٢٩٩.

(٣) تحليل الخطاب الشعري: ٤١.

(٤) الديوان: ٣٠٠.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

واغـــنم الأنـــس والمســـرّة فيـــه بـــين ظـــلٍّ ينـــدى وعـــذبٍ قـــراحِ
دمـــتَ في غبطـــةٍ ورفعـــة شـــانٍ مـــا انجلـى الليـلُ عـن ضـياءِ الصـباحِ

النمط الثاني: الاستهلال بدال الصباح: (وهنا يلتبس دال الصباح بمقدمة الصباحية، أو يذوب أو يمتزج بمقدمة عادة غزلية أو بكاء الشيب والشباب) وهو أقل بالمقارنة مع الاستهلال بالتحية الصباحية، والفرق بين الاستهلالين أن الاستهلال بالتحية يجمع فيها بين دلالات القطبين المركزيين لأنعم صباحاً، وهي دلالات الإنعام والصباح، في حين يقتصر في الاستهلال بدال الصباح على قطب الصباح بدلالاته الثلاث الزمانية والنورانية والجمالية، وفرق آخر أن الاستهلال بالتحية الصباحية كونها تحية ملوكية خصت بالمديح السلطاني، بينما الاستهلال بالصباح عم ليشمل المديح السلطاني[(١)] والإخواني والنبوي، ويتحرر من قيد التحية فينطلق في آفاق رحبة، فإذا به يمزج بين الصباح مطلعاً والمقدمة الغزلية لما يحمله من دلالات الحسن والوضاءة. وكذا يدمجه مع المقدمة التي تبكي الشيب. وهذا ما نلفيه في غير ما صباحية [(٢)] منها قوله في إخوانية واصفاً رسالة وجهها إليه ابن الخطيب[(٣)]:

طالعتُهـــا دون الصـــباح صَـــباحاً لمـــا جلـــتْ غُـــررَ البيـــان **صِـــباحا**
ولقـــد رأيـــت ومـــا رأيـــت كحســـنِها وجهـــاً أغـــرَّ ومبْسِـــماً وضّـــاحا
عـــذراء أرضـــعها البيـــان لِبانـــه وأطـــال مغْـــدى عنـــدها ومراحـــا
فأتـــت كمـــا شـــاءتْ وشـــاءَ نجيُّهـــا تـــذكي الحِجـــا وتـــنعِّمُ الأرواحـــا
لا بـــل كمثـــل الـــروض باكـــره الحيـــا وســـقى بهـــا زهـــر الكمـــام ففاحـــا
وطـــوتْ بســـاطَ الشـــوقِ مـــني بعـــدما نشـــرت علـــيّ مـــن القبـــول جناحـــا

(١) الديوان: ٣٠٠.
(٢) انظر: المصدر نفسه: ١٨٨، ٢٥٨. ٣٠٠، ٣٧٥، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٧٤،٤٧١.
(٣) المصدر نفسه: ٣٧٣. وانظر أيضاً: ٣٤٥.

فهنا، يهيمن دال الصباح على هذا المطلع في هذه المقطعة الإخوانية، من خلال تكرره باشتقاقاته ثلاث مرات، موظفاً الجناس والتصريع، (صباحا ـ صِباحا)، متكئاً على التشخيص، حيث جعل للبيان وجوهاً بيضاء صباحاً، بل إن الرسالة في حسنها ونورها امرأة فاتنة؛ ذات وجه أغر ومبسم وضاح. ولا شك ما في هذا المطلع من براعة الاستهلال جاء متناسباً مع وصف جمال الرسالة بياناً وبلاغة.

ومن مطالعه الصباحية لمديح سلطاني أتت ممتزجة بمعاني المقدمة الغزلية، ما جاء في قوله[1]:

أمـــا وصـــباحٍ مـــن جبـــينٍ تبلّجـــا ولـيـــلٍ بهـــيمٍ للغـــدائر قـــد ســـجا
وبـــدر مُحيّـــا أخجـــل البـــدرَ حســـنُه وقـــد صـــدعت أنـــوارُه حُلْكـــةَ الـــدُّجا
ونُـــور أقـــاحٍ قـــد ســـقتْه سُـــلافةٌ رشـــفْتُ بـــه ثغـــراً شـــهيّاً مفلّجـــا
ونـــرجسِ لحـــظٍ أمطـــر الـــورد لؤلـــؤا فـــرشَّ بمـــاء الـــوردِ خـــداً مضـــرّجا
ومسـرى نسـيمٍ صـافح البـانَ بالحمـى فعطّـــر أرجـــاء الـــرياض وأرّجـــا
لقـــد نهـــج المـــولى الإمـــامُ محمـــد إلى نيـــل أبعـــاد الكواكـــب منهجـــا

فيحيلك هذا المطلع على التغزل بامرأة كأن وجهها صباح منير، شعَّ النور من جبينها، ليعقبه بذكر الليل الذي يحيل على سواد غدائرها، فحضرت هنا الثنائية بين الصباح والليل، وإن كان الصباح يقابل المساء لا الليل، ولكنه يقابله بنوره، فثمة لونان أبيض وهو نور الصباح هو نور وجه المحبوبة، وأسود وهو لون شعرها، معززاً البيت الأول بالثاني في الإلحاح على وضاءة وجه هذه المرأة، وحسن غرتها، لدرجة أن خجل من حسنها البدر مبالغة في الحسن والوضاءة، ونورانية صدعت ونسفت حلكة الدجى والظلام.

(١) الديوان: ٢٥٨.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

وتتداعى معاني الغزل وتنبث في هذه المقدمة بذكر الثغر المفلج، وما يكون له من رشف وكأنه سلافة خمرة، وهنا، نلحظ أسلوب التنكير في هذه المقدمة بتنكير الصباح والجبين ليوهم أنه بصدد التغزل بامرأة، وهو في الحقيقة يروم التمدح من خلال هذه المعاني الغزلية بجمال مليكه ونورانيته، وهو ما كشف النقاب عنه في مختتم القصيدة، بأسلوب التعريف، فإن ذلكم الجبين الوضّاء الذي تبلج الصباح منه ما هو إلا جبين مخدومه الإمام محمد:

ويشـــرقُ منـــه يومُـــه بجبينـــه وقد لاحَ وضّاحَ الأساريرِ أبلجا

وفي المديح النبوي يستهله بالصباح، في تركيب إشاري يفيد التفخيم والتعظيم، "هذا الصباح" ليجعل منه قاعدة يبني عليها مفهوماً جمالياً للشيب، فيضفي عليه مسحة من نور الصباح وجماله، فيبرزه أي الشيب . صباحاً من باب التشبيه البليغ بإضافة المشبه إلى المشبه به، "صباح الشيب" في بياضه وسرعة انتشاره، ويعزز هذا المنحى النوراني للشيب بتشبيهه بنور الضحي "فاستنار ضحى". في حين أبرز الشباب الذي لم يصرح به، وإنما دل عليه بالليل فجعله رمزاً للشباب، مستغلاً ثنائية الصباح والليل بما فيهما من نور وظلمة للدلالة على ثنائية الشباب والشيب. وهنا يقابل بين لوني الدهر من "نور و "غسق "للدلالة على سنة الكون في تعاقب زمني الليل والنهار، وكذا سنة الحياة في تعقب الشيب للشباب وهو تعقب زمني أيضاَ. وفي تكرار ثنائيتي النور والغسق، والشيب والشباب في هذه المقدمة لتنداح منه دلالتان نورانية وزمانية، وهنا تتداخل المقدمة الصباحية مع مقدمة بكاء الشيب، "بصفته نذيراً وعاذلاً على التفريط والتمادي في الغواية ففي ذلك تناسب بين المطلع والغرض"[(١)] ليخلص منها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم[(٢)].

هذا الصباحُ صباح الشيب قد وضَحا سرعان ما كان ليلاً فاستنار ضحى

(١) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زمرك الغرناطي :٨٣.

(٢) الديوان: ٣٧٥

للـدهر لـونان مـن نـورٍ ومـن غسـقٍ هــذا يعاقــب هــذا كلمــا برحــا
وتلــك صــبغة أعــدى بنيــه بهــا إذا تراخــى مجــالُ العمــر وانفســحا
مـا ينكـر المـرء مـن نـورٍ جـلا غسـقاً مــا لم يكــن لأمــاني الــنفس مُطّرحــا
إذا رأيـت بـروق الشـيب قـد بسـمتْ بمفــرقٍ فمُحيّــا العــيش قــد كلَحــا
..وا رحمتــا لشــبابي ضــاع أطيبُــه فمــا فرحــت بــه قــد عــاد لي ترَحــا
..يا ربِّ لا سـببٌ أرجـو الخـلاص بـه إلا الرســولُ ولطفــاً منــك إنْ نفحــا

٢. الاختتام بالصباحية تحية أو دالاً:

لم تكن الصباحية مجرد مقدمة يفتتح بها، وإنما نجد دلالات الصباح تشع في القصيدة حتى منتهاها، وهو أمر يتكرر أكثر من مرة، منها هذه الصباحية التي يفتتحها بدال الصباح ويختمها بالتحية الصباحية في تناغم وانسجام دلالي وفني. وقد نجد العكس في الافتتاح بتحية الصباح والاختتام بداله(١).

يا طلعــة الصــبح المبــين ومخجــل الــ ــــدرِ المنــيرِ إذا بــدا في موكــبِ(٢)
الشــمسُ أنــت إذ الملــوك كواكــبُ والشــمسُ تهــدي نورَهــا للكوكــبِ
أنــوارُ وجهــك يا محمــدُ زاحمــت عنــد الصــباح ضــياءه بالمنكــبِ

إلى أن ختمها بالدعاء له شاكراً إياه على سؤاله عنه.

فــانعمْ صــباحاً بالغــاً مــا شــئتَه فالصــبحُ طِــرْفٌ أشــهبٌ فلتركــبِ

والختم بالدعاء أمر يشتهيه الملوك(٣)، ونجد هذا الاختتام مناسباً لموضوع الصباحية في وصف جند الخليفة في بعض مواكبهم ،ذلك أن شرط الشعر الجيد "أن يكون الاختتام في كل غرض بما

(١) انظر المصدر نفسه:٣٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ٨٥ ـ ٨٦.
(٣) العمدة :١٩٩/١

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

يناسبه"[١]، كما ينبغي أن يكون الاختتام بمعانٍ سارة فيما قصد به التهاني والمديح[٢]، كما وينبغي أن يكون اللفظ فيه مستعذباً، والتأليف جزلاً متناسباً، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه، غير مشتغلة باستئناف شيء آخر"[٣]، وهذا ما نلفيه في هذه الخاتمة، إذ جرد من الصباح فرساً أشهبا، على سبيل التشبيه البليغ، يمتطيه سيده ذي الطلعة النورانية، ليكون رأس الموكب، وقد تناسبت بداءة القصيدة هنا مع مختتمها "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً... وإذا كان أول الشعر مفتاحاً وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه"[٤].

هذا، وقد يقتصر في الختم بالتحية الصباحية دون الافتتاح بها أو بدال الصباح، من مثل قوله[٥]:

يا خير من ورث الملك العزيز ومن ... بذاته وكمال الخلق قد كسبهْ
وجوده عمّ أهل الأرض قاطبةً ... وفخره أعجزَ الكتّابَ والحسَبَهْ
العبد يسأل مولانا وموئلنا ... عن حاله بعد ما قد حسّ بالحسَبَهْ
وانعمْ صباحاً فنور الصبح مكتسَبٌ ... لنور وجهك يا مولاي قد نسَبَهْ

الخاتمة:

خلصت الدراسة إلى نتائج نسجلها كالآتي:

ـ كشف البحث عن فن شعري جديد، له مقوماته وعناصره المميزة له، ألا وهو الصباحيات، وهو من مظاهر التجديد الشعري والفني عند ابن زمرك في شعره المدحي.

(١) منهاج البلغاء: ٣٠٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الديوان: ٥٨.
(٥) الديوان: ٢٥٨.

ـ تعد "الصباحيات" مصطلحاً شعرياً، من مبتكرات ابن زمرك أو الجامع، التي لم يسبق إليها. وقد عمدنا إلى تأصيل المصطلح لغة واصطلاحاً، من خلال استقراء النصوص الشعرية وربطها بسياقاتها اللغوية والتاريخية، والوقوف على تصور الجامع وتحديد المحقق للمصطلح، لنخلص بعد استقراء النصوص الشعرية الزمركية إلى توسيع نطاق مفهوم الصباحيات بناء على احتفاء ابن زمرك بالصباح تحية ودالاً، مبتدأ ووسطاً وخاتمة، وإلى تعريف جامع مانع يتمثل في أن الصباحيات هي فن شعري موضوعه مدح خالص أو ممتزج بغيره من الموضوعات التي تدور في فلكه؛ كالشكر والتهنئة والوصف.. ينشد زمن الصباح، يستهل بمطلع صباحي، ذي تحية ملوكية غالباً، يشع بلفظ الصباح ومدلولاته النورانية والجمالية والزمانية على هذا الشعر ليغدو الصباح تيمة شعرية مدحية، ولازمة فنية، تتكرر في الصباحية.

ـ يعد المديح السلطاني موضوع شعر الصباحيات الرئيس، وقد تأتي ممتزجة مع موضوعات أخر تدور في فلك المديح كالشكر والتهنئة بالإبلال من المرض والوصف والهدية، والطرديات، والعيديات، ووصف الخمر ومجالس الأنس، إضافة إلى المديح الإخواني والنبوي.

ـ بلغت قصائد الصباحيات ما ينيف على الثلاثين، بعضها منصوص عليها بالصباحية، وبعضها الآخر غير معنون ولها النسق الصباحي نفسه، مبثوث بين ثنايا أغراض أخرى، كالتهاني، والوصف، والشكر، والإبلال من المرض، والنزهات، والإخوانيات، والمخمسات.

ـ جعل ابن زمرك من الصباح تيمة شعرية مدحية، احتفى به لدرجة أنه يفيض بدلالاته وإيحاءاته على القصيدة الصباحية مطلعاً ومتناً وخاتمة، فيصبغ أغراض الشعر الممتزج بها.

ـ أفرز شعر الصباحيات فن فواتح التحيات الصباحية السلطانية.

ـ يعد المطلع الصباحي كشفاً جديداً إضافياً إلى مطالع القصيدة الأندلسية والعربية، وقد امتاز ببراعة الاستهلال، اتساقاً مع موضوع القصيدة، وهو على نمطين: الأول الافتتاح بالتحية الصباحية،

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

والثاني، الافتتاح بدال الصباح. وتركزت معانيها في الجمع بين دلالتي قطبي التحية الصباحية "أنعم صباحاً" وأخواتها، لتفيض بها على ثنايا النص الصباحي.

ـ شكلت الدلالات النورانية، والجمالية والزمانية ثلاث دلالات مركزية للصباحيات. فكشفت الدلالة النورانية عن مسحة صوفية لابن زمرك، ارتقت بإمامه النصري إلى مصاف القطبية، فغدا مصدراً للنور الوجودي. وهنا غدت قيمة النور قيمة مدحية مهيمنة، فيما تنزاح باقي القيم المدحية كالجود والشجاعة وغيرها. وشكل الصباح معادلاً موضوعيا لجمال الممدوح. كما استمدت الصباحيات وصفها وكينونتها من الصباح زمناً، ومقوماً فنياً، لذلك فإن الصباح يمثل زمن الإنتاج الشعري، وزمن التفاؤل، وزمن البشائر والسعود، وزمن اليمن والبركة، وزمن اللذة والانتشاء، وزمن النصر، وزمن بثّ الحياة وتجددها.

ـ اتكأت الصباحية كثيراً في نسقها الإيقاعي على حرف الحاء روياً ليشكل ظاهرة قافوية فيها، كما عزز ذلك عنصر التكرار بأنواعه تكرار الألفاظ والحروف، وكذا الجناس بأنواعه، لإغناء الدلالات الصباحية. كما وظف ابن زمرك الأساليب الإنشائية من أبرزها أسلوبا الأمر والنداء الذين انزاحا بلاغياً إلى معاني الدعوة إلى المشاركة في العبّ من لذائذ الصباح؛ كون الصباح رمزاً للذة والمتعة والانتشاء.

ـ تشكلت الصباحيات أسلوبياً وفنياً وبنائياً من إشعاع الصباح؛ فمفتاح القصيدة الصباح في بعده النوراني والجمالي والزماني. ومن حيث المعجم فهو نوراني جمالي، والصورة نورانية، إذ بنيت على التشبيه البليغ والمقلوب والاستعارة المكنية التشخيصية.

إن القصيدة الصباحية تستقي من الصباح بنورانيته وشعشعانيته توهجها الشعري وألقها الفني، فتغدو صباحية شعرية يخلع الشاعر عليها من تجليات الصباح ما يجعل منها تحفة فنية رائعة، ينشدها بين يدي مليكه زمن الصباح، غنية بأساليب التحية والثناء والمدح والوصف الفني.

المصادر والمراجع:

١. أحمد، بتول الزبير علي، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زمرك الغرناطي" رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، السودان، أبريل ٢٠٠٩.

٢. الأزدي، ابن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

٣. البغدادي، شرح البغدادي لقصيدة امرئ القيس "ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي"، تحقيق ودراسة: محمود محمد العلمودي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) غزة– فلسطين، المجلد التاسع عشر العدد الأول، يناير ٢٠١١.

٤. الجراري، عباس، فنية التعبير في شعر ابن زيدون، ١٩٧٧مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء.

٥. الحمصي، حمد سليم، ابن زُمرك الغرناطي، سيرته وأدبه، ٧٣٣. ٧٩٦هـ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط١ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٦. ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٧. ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت، ط ١٩٨٣م.

٨. ابن الخطيب، لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان، ط٣، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

٩. ابن الخطيب، لسان الدين، ديوان لسان الدين ابن الخطيب السليماني، صنعه وحققه وقدم له: محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ـ المغرب، ط٢، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٠. الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١١. الرباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشعري" التشكيل والتأويل"، دار جرير للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٢. ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١٣. ابن زمرك، محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

١٤. الصامل، محمد بن علي، بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٦/ ع٢٨، شوال ١٤٢٤هـ.

١٥. ضيف، شوقي، فصول في الشعر ونقده دار المعارف، ط٣، ١٩٨٨م.

١٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ـ القاهرة، دون: ت، ط.

١٧. طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١/ ١٩٩٣م.

١٨. بو عامر، بو علام، شعرية المطلع في القصيدة العباسية، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، العام الجامعي ١٤٣٣ ـ ١٤٣٤هـ، ٢٠١٢ ـ ٢٠١٣م.

١٩. عبد اللطيف، محمد حماسة، الجملة في الشعر العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٢٠. عتيق، عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، ط٢٠٠٩.

٢١. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

٢٢. عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.

٢٣. عيسى، فوزي، النص وآليات القراءة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦م.

٢٤. الفيومي، أحمد بن محمد (ت نحو ٧٧٠هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٢٥. القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء قديم وتحقيق، محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٣، ١٩٨٦.

٢٦. لقمان، شاكر، مقدمة القصيدة في شعر ابن الأبار القضاعي بين النمطية والتنوع، مجلة الأثر، جامعة أم البواقي الجزائر، العدد ١٧، جانفي ٢٠١٣م.

٢٧. مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١ ١٩٨٥.

ISSN:2707-8655
EISSN:2707-8663

٢٨. المقري، أحمد بن التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، ط ٢٠٠٤ م.

٢٩. المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

٣٠. ابن منظور، لسان العرب دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٣١. الموسى، فيروز، قصيدة المديح الأندلسي، دراسة تحليلية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٩.

٣٢. نجا، أشرف محمود، قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية "عصر الطوائف"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط٢٠٠٣،١م.

٣٣. النجار، محمد رجب، بردة البوصيري ـ قراءة أدبية وفولكورية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت/ الحولية السابعة، الرسالة الثالثة والثلاثون، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.